الباب الأول

ظهور الإسلام

"لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. ليس بفرار. يفتح الله عز وجل على يديه".

"حديث شريف"

obeikandl.com

ظهور الإسلام

الإمام جعفر الصادق نتاج قرن كامل من العظائم. يحني لها الوجود البشري هاماته. ويدين بحضاراته. على رأسها نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام. وفيها بطولات الإمام علي إلى جوار النبي، وأثرها في ظهور الإسلام، ومشاركته في إبان خلافة الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين سبقوه. وآيات نبوغه وتبريزه في السياسة والإدارة والقضاء والفقه والتشريع والبيان العربي والعلم بوجه عام. وإجلال جميع المسلمين لمكانته والتفاف شيعته حوله وتفضيلهم له على سائر الخلفاء الراشدين.

ثم قيام الفتنة في أخريات خلافة عثمان واغتياله وبيعة المسلمين لعلي، وخروج معاوية عليهم بأهل الشام، وقيام الحرب بين أمير المؤمنين وبين جيش معاوية، وخروج الخوارج واغتيال علي، والبيعة لابنه الحسن. ثم تصالح الحسن ومعاوية حقنا للدماء. واستقرار الأمور للأخير نحو عشرين عاما.

ولما آلت الأمور إلى ابنه يزيد استفتح حكمه بمذبحة كربلاء، حيث استشهد الحسين بن علي أبو الشهداء.وأعقبتها وقعة الحرة، حيث سفك دم الصحابة والتابعين، ثم ضربت جيوشه الكعبة بالمنجنيق ومات وجيوشه تضرب الكعبة. فتولى بعده ابنه معاوية، فتنازل عن الخلافة. وولى بنو أمية مروان بن الحكم وتتابع بعده بنوه.

أما أبناء الحسين فتتابعوا على حمل هموم المسلمين وإعلاء كلمة الدين والقيام في الأمة مقام جدهم الإمام "علي بن أبي طالب" والنهوض بتبعات الإمامة بتوفيق الله سبحانه من علي بن الحسين "زين العابدين" إلى ابنه الإمام "الباقر" إلى حفيده الإمام "الصادق".

والإشارات السريعة، إلى كل أولئك، مع الوجازة المفروضة، موضوع الفصلين الأول والثاني في هذا الباب. وفيهما مدخل الكتاب.

الفصل الأول

أخو النبي ﷺ

"أنت أخي وصاحبي"

"حديث شريف"

أول من آمن بالله ورسوله أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، وأبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب. واختلف في الأول منهما. والأكثرون يقولون عليا. واختلفوا في سن علي يومئذ. قال ابن إسحق: إن عليا أول من آمن بالله وصدق رسول الله، وهو ابن عشر سنين يومئذ.

لكن حسان بن ثابت، وطائفة، قالوا: إن أبا بكر هو الأول.

وروى ابن إسحق كيف أسلم علي بن أبي طالب بعد إسلام خديجة وصلاتها مع النبي بيوم واحد. إذ جاءه فوجدهما يصليان. فقال علي: يا محمد ما هذا؟

فقال رسول الله ﷺ: "دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله. فأدعوك إلى عبادة الله وكفر باللات والعزى".

فقال علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم. فلست بقاض أمرا حتى أحدث أبا طالب. فكره رسول الله ﷺ أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره.

فقال له: "يا علي إن لم تسلم فاكتم". فمكث علي تلك الليلة. ثم إن الله أوقع في قلبه الإسلام. فأصبح غاديا إلى رسول الله حتى جاءه فقال: ماذا عرضت علي يا محمد؟

فقال: "تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وتكفر باللات والعزى. وتبرأ من الأنداد". ففعل علي وأسلم. ومكث علي يأتيه سرا خوفا من أبي طالب. وكان مما أنعم الله به على علي أنه ربي في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام.

ومن رسول الله ﷺ وخديجة – أول مسلمين – ولدت فاطمة الزهراء. ومن أبنائها ومن أبناء علي وأبي بكر الصديق، أي من أبناء نبي الإسلام، والمسلمين الثلاثة الأولين، ولد جعفر بن محمد: الإمام الصادق.

وبدعوة أبي بكر أسلم خمسة من العشرة الذين بشرهم رسول الله بالجنة ومات وهو عنهم راض: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص. وهؤلاء الخمسة هم أهل الشورى. الذين جعل عمر الخلافة فيهم وفي "علي بن أبي طالب"، ليختاروا واحدا منهم فيبايعه المسلمون.

فعلي بن أبي طالب يجئ دائما في صدارة أهل الإسلام.

وأبوه وأمه في الصدارة كذلك:

لقد كفل أبوه محمدا ابن أخيه عبد الله وهو ابن ثماني سنين. وخرج به إلى الشام وهو ابن اثنتى عشرة. وهو الذي مثله في الزواج من أم المؤمنين خديجة. ولما ماتت فاطمة بنت أسد، أم علي، نزل النبي في لحدها وألبسها قميصه ﷺ وقال: لم يكن أحد أبر بي بعد أبي طالب منها".

وجزى النبي صنيعهما في علي. إذ كفله وهو ابن ست سنين، ثم جعله سابقا في الإسلام. فلما كان النبي يعبد الله في غار حراء كان علي يعبد الله وهو صبي مميز. ثم بسق الفرع وسمق في جوار أخيه[1] ومربيه وعلى عين أبيه.

وفي سنة سبع من المبعث تآمرت قريش على قتل الرسول. وأبى قومه بنو هاشم. وظاهرهم بنو عمهم "المطلب بن عبد مناف". فأجمع المشركون من قريش على إخراجهم من مكة إلى الشعب. فخرجوا مؤمنهم وكافرهم. فلما عرفت قريش أن رسول الله قد منعه قومه أجمعت ألا تدخل إليهم شيئا، وقطعت عنهم الأسواق ثلاث سنين.

وكان "أبو طالب" يأمر رسول الله أن يأتي فراشه كل ليلة، حتى يراه من أراد به شرا. فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه. فاضطجع على فراش الرسول. وأمره أن يرقد على بعض فرشهم فيرقد عليها. حتى إذا أكملوا ثلاث سنين أخبر الله رسوله أن العهد الذي تعاهدته قريش في صحيفة علقوها بالكعبة قد أكلته الأرضة. ولحست باقي الصحيفة. فخرجوا من الشعب إلى قريش. وأنبأ أبو طالب قريشا أن الصحيفة قد أكلت، وأسماءهم قد لحست، كما أخبره ابن أخيه، وأنبأهم أنه وأهله سيحمونه عن آخرهم.

وذات يوم سأل النبي أهله: أيكم يواليني في الدنيا والآخرة؟ – وعلي جالس – فسكتوا. وقال علي: أنا أواليك في الدنيا والآخرة. فكانت هذه أول موالاة من النبي لعلي.

ولما حضرت الوفاة أبا طالب في السنة العاشرة من المبعث عن بضع وثمانين، جمع إليه وجوه قريش فقال بين ما قال: "... وإني أوصيكم بمحمد فإنه الأمين في قريش. والصديق للعرب. وهو الجامع لكل ما وصيتكم به. وقد جاءنا بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن.. يا معشر قريش كونوا له ولاة..".

والنبي يقول: "ما زالت قريش كاعة حتى مات عمي أبو طالب".

---

(١) العرب تسمي ابن العم الشقيق أخا.

وماتت خديجة بعد أبي طالب بأيام أو أشهر أو أكثر. وأذن الله للرسول في الهجرة إلى المدينة، وكان قد أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة ولم يبق فيها إلى جواره إلا أبا بكر وعليا. والأول هو الصديق والثاني هو"الفدائي الأول".

فلقد رأت قريش ذلك فأجمعت على قتل النبي، فبيتوه ورصدوه طول ليلهم ليقتلوه إذا خرج. فأمر عليا أن ينام على فراشه. ودعا ربه أن يعمي على قريش أثره، وخرج وقد غشى أبناءها النوم. فلما أصبحوا خرج علي عليهم وقال: ليس في الدار ديار. فعلموا أن رسول الله نجا.

وكان "الفدائي الأول" قد شارف العشرين من العمر. استبقاه الرسول لأمر يتعلق بحياة الرسول. ليضحي من أجله بحياته. وسلمت الحياتان، لأن الأولى حياة الإسلام، ولأن الثانية سوف تفديها وتحرسها مرة إثر أخرى.

أخو النبي:

أقام علي بمكة أياما ليرد فيها ودائع كانت عند الرسول. ثم لحق به في المدينة. فنزل معه بقباء، حيث أقام رسول الله مسجدها ثم خرج إلى دور أخواله بني عدي بن النجار فأقام بها أشهرا بنى فيها مسجده. وآخى بين تسعين من المهاجرين والأنصار على الحق والمساواة والتوارث. حتى نزل قوله تعالى: (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض).

أما "أبو بكر" فآخى بينه وبين خارجة بن زيد. وأما "عمر" فآخى بينه وبين عتبان بن مالك. وأما "عثمان" فآخى بينه وبين أوس بن ثابت "أخي حسان".

أما "علي" فآخى بينه وبين نفسه ﷺ. بل هو قال له: "أنت أخي وصاحبي". وفي ذلك رواية ابن عباس أن عليا كان يقول: "والله إني لأخو رسول الله ﷺ ووليه". وهذه هي المؤاخاة الثانية. فالأولى كانت بمكة.

ثم خرج المسلمون ليوم "بدر"، فدفع رسول الله الراية إلى علي. وراية أخرى لرجل من الأنصار. فهذه أولى معارك الإسلام وكبراها. وفعل علي الأفاعيل بالعدو: قتل من المشركين بيده أربعة. وقيل خمسة وقيل ستة: أكثرهم من أهل معاوية بن أبي سفيان، وهو لا يزال بين المشركين، ثم قدم الرسول فلذة كبده "لبطل بدر". فبنى بفاطمة الزهراء وهي في الثامنة عشرة(٢).

وروى ابن الأثير في أسد الغابة: "أخبرنا... عن الحارث عن علي فقال: خطب أبو بكر وعمر – يعني فاطمة – إلى رسول الله ﷺ فأبى رسول الله ﷺ عليهما. فقال عمر: أنت لها يا علي.

فقلت: مالي من شئ إلا درعي أرهنها. فزوجه رسول الله ﷺ فاطمة. فلما بلغ ذلك فاطمة بكت. قال: فدخل عليها رسول الله ﷺ فقال "مالك تبكين يافاطمة! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم خلقا وأولهم سلما".

أما العلم والحلم والسلم فهي التي احتاج فيها علي – وهو في فتاء السن – إلى الشهادة بها من النبي لدى زهراء النبي.

وأما ميادين الوغى فقد شهدت له فيها رايات "بدر". وستشهد له فيها الرايات الأخر.

في يوم أحد – أخطر معارك الإسلام – كان علي في الحرس، إلى جوار النبي، حين أصيب النبي في المعركة. وكان طبيعيا أن ياصب علي بست عشرة ضربة، كل ضربة تلزمه الأرض. وكما يقول سعيد بن المسيب سيد التابعين: "فما كان يرفعه إلا جبريل عليه السلام" فلما

---

(٢) روى جميع بن عمير التيمي قال: "دخلت مع عمي على عائشة فسألت: أي الناس كان أحب إلى رسول الله؟ قالت فاطمة. قيل من الرجال؟ قالت زوجها. أن كان ما علمت صواما قواما" وفي مسند الإمام أحمد عن علي أنه قال: دخل علي رسول الله ﷺ، وأنا نائم، فاستسقى الحسن أو الحسين فقام النبي إلى شاة لنا بكئ "قليلة اللبن" فحلبها فدرت فجاء الحسن فنحاه النبي فقالت فاطمة: يا رسول الله. كأنه أحبهما قال لا ولكنه استسقى قبله. ثم قال: "أنا وإياك وهذين، وهذا الراقد، في مكان واحد يوم القيامة".

توفيت بعد رسول الله بستة أشهر وقيل ثلاثة. وقيل بسبعين يوما عن تسع وعشرين سنة أو ثلاثين.

اشتد الخطب،وقتل حامل الراية – مصعب بن عمير – دفع الرسول الراية لعلي... فقتل علي يوم ذاك واحدا وقيل ثلاثة مشركين.

وفي يوم الخندق أزفت الآزفة حيث تيمم المشركون مكانا ضيقا فاقتحموه بخيلهم. فخرج لهم علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين، حتى أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموا منها. وكان عمرو بن عبد ود – فارس العرب – يريد أن يعرف مكانه يوم الخندق. فنادى من فوق الخيل: هل من مبارز؟ فبرز له علي. قال له عمرو: ما أحب أن أقتلك لما بيني وبين أبيك.. وأصر علي ونزل عمرو عن فرسه. وتجاولا. فما انجلى النقع حتى قتله علي. وفر أصحاب الثغرة بخيولهم منهزمين.

وفي غزوة بني قريظة كانت له راية المسلمين:

وفي صلح الحديبية كان "كاتب" صحيفة الصلح علي بن أبي طالب يملي عليه رسول الله ﷺ! فذلك كان أيمن صلح عرفه التاريخ البشري. فلقد أصبح الذين أسلموا بعده وقبل فتح مكة، أكثر ممن أسلموا قبله. وبه حفظت دماء الذين بايعوا تحت الشجرة، ليظهر الإسلام على أعدائه وييسر فتح مكة.

وفي غزوة خيبر فتح الله على المسلمين حصنا واستعصى اثنان على أبي بكر وعمر. فقال عليه الصلاة والسلام: "لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. ليس بفرار. يفتح الله عز وجل على يديه". ولما أصبح دعا عليا وقال: "خذ الراية وامض حتى يفتح الله عليك".

وحمى الوطيس. وسقط ترس علي. فتناول بابا وترس به نفسه.. ولم يزل يقاتل حتى فتح الله عليه.

وصدق أبو بكر بعد سنين في وصف علي عندما حدث المسلمين عن علي وعمر: إن عليا إذا اعترضته عقبة حاول اقتحامها. فإما كسرته أو كسرها. أما عمر فإنه إذا صادفته عقبة دار لها.

وحمى الله فضائل الإسلام على يد علي. فلم يره أحد في موقف المنكسر. ولما استشهد في دفاعه عن هذه الفضائل، كان الإسلام ينتصر.د

وفي يوم حنين أعجبت المسلمين كثرتهم. فكادوا ينهزمون. وثبت الرسول. وقتل علي صاحب راية المشركين وأخذها منه، وكر المسلمون عليهم فهزموهم بإذن الله.

ولما قتل خالد بني خزيمة خطأ وسباهم – وهم مسلمون – بعث الرسول عليا فوداهم ورد إليهم أموالهم وقال لهم: انظروا إن فقدتم عقالا لأديته. فبهذا أمرني رسول الله ﷺ.

وفي السنة التاسعة خرج رسول الله إلى تبوك. واستعمل عليا على المدينة. فسأل علي النبي في ذلك. فأجابه: "إنا خلفتك لما تركت ورائي. فارجع فاخلفني في أهلي، وأهلك. فأنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي..." فكان تخليفه عن هذه الغزوة تقديما له. إذ وضعه موضع هارون من "موسى" عليه السلام. أي في منزلة أخ الرسول من الرسول.

وتتابع التقديم. إذ نزلت عشر آيات من صدر سورة "براءة" من عهد كل مشرك لم يسلم أن يدخل المسجد الحرام بعد هذا العام.

فقالوا للرسول: ابعث بها إلى أبي بكر – وكان على الناس في حج البيت الحرام – فقال عليه الصلاة والسلام "لا يؤديها عني إلا رجل من أهل بيتي" وبعث عليا على ناقته ﷺ فأدرك أبا بكر في الطريق. فسأله أبو بكر هل جاء أميرا أو مأمورا؟ قال علي: بل مأمورا. فهو قد جاء بغرض خاص بتبليغ القرآن. أما إمارة الحاج فكانت لأبي بكر.

وفي كتب السنن أن النبي بعد عودته من حجة الوداع نزل بغدير خم وأعلن أنه يترك القرآن و"عترته" للمسلمين ثم أخذ بيد علي ودعا ربه: "اللهم وال من والاه وعاد من عاداه".

وكان للرسول "كتابه""والمنفذون" لأمره و"المفتون" في حياته.

– ثقة من الله والرسول في شجاعتهم وحكمتهم وسداد رأيهم – وفي كل صفة. وكل طائفة، كان علي. فامتاز بهذه الخصيصة التي تحوي جماع خصائص أصحاب النبي.

– فكتاب النبي: أبي بن كعب، وأبو بكر وعمر، وعثمان، و"علي"، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، وحنظلة بن الربيع.

– والمنفذون لأحكامه "ومنها ضرب الأعناق بين يدي النبي". "علي"، والزبير، ومحمد بن مسلمة.

– والمفتون في عهده: أبو بكر، وعمر، وعثمان، و"علي"، وأبي بن كعب، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وعمار بن ياسر، وزيد بن ثابت، وسلمان، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري.

ولما بعث النبي عليه الصلاة والسلام عليا إلى اليمن قال علي: "يا رسول الله تبعثني إلى اليمن ويسألونني عن القضاء ولا علم لي به". فضرب النبي بيده على صدره ثم قال "اللهم ثبت لسانه واهد قلبه" قال علي: "فوالذي خلق الحبة وبرأ النسمة ما شككت في قضاء بين اثنين بعد". وهي خصيصة يدرك جلال اليقين فيها من ولي القضاء.

بين الخلفاء الراشدين:

صعدت روح رسول الله إلى الرفيق الأعلى وعلي بطل جيوشه غير منازع. وكان قد دربه على القضاء والإفتاء، فهاتان الوظيفتان هما أسمى عمل في الدول، وبخاصة في الدول المسلمة، حيث الحفاظ على الشريعة، وإدارة الدول، وسياسة الأمم، واستقرار النظم، واطمئنان الجماعة واجبات دينية. والإفتاء يعدل التشريع في أيامنا هذه. والقضاء هو توزيع العدالة. والعدل صفة الله سبحانه.

لقد بعثه إلى اليمن. فقضى. وله قضاء مشهور عرض على النبي فاستحسنه. وله السؤال المشهور يوم ذاك إذ سأل: أكون كالسكة المحماة أو الشاهد يرى ما لا يراه الغائب؟ فأجابه عليه الصلاة والسلام: "بل الشاهد يرى ما لا يراه الغائب". فدل بذلك على تفويضه في أن

يجتهد، وأن يعمل بمقاصد الشريعة.. وكان أيامئذ في عنفوان شبابه. فلم يفارقه الاجتهاد العظيم للأمة في كل مناسبة تقتضي الاجتهاد.

وبالتربية النبوية في القضاء والإفتاء. نفذ علي إلى صميم الفكر التشريعي في الأمة. أي صميم شريعة الإسلام.فاحتاج أبو بكر وعمر إليه في جوارهما ١- ليشير عليهما. ٢- ويقضي. ٣- ويفتي.

أما فتاواه التشريعية فستبقى مثلا أعلى للفكر الإسلامي في سياسة الدولة وسياسة الناس.

إذ اشتهر عمر بأنه المجتهد الأكبر من كثرة ما واجه من ظروف طارئة على الدولة المنتصرة في الشرق والغرب، ومن طول ما حكم وهو خليفة، واتساع ما فتح من الفتوح، واختلاف من أسلم من أهل البلاد المفتوحة، فعلي كان يصحح الكثير للمجتهد الأكبر. وفي ذلك الحجة القاطعة على أنه في أسمى وظائف الفكر، وهما التشريع والقضاء، كان بدوره مجتهدا أكبر.

إليك قليلا من الأمثال، تخيرناها، من أمور معلمة في الدين والفقه والسياسة:

* منع عمر تدوين الحديث – مخافة أن يخلط القرآن بشئ – وبهذا أبطأ التدوين عند أهل السنة قرنا بتمامه. وانفتحت أبواب للجرح والتعديل وللوضع، والضياع. أما علي فدون من أول يوم مات فيه الرسول. ولعله إذ دون صار مرجع الصحابة بما فيهم عمر.

وهذا الاتجاه العلمي للتدوين، يؤازره اتجاه ديني، وفقهي، وسياسي، واقتصادي، لتوزيع الحقوق.

* قال عمر للناس يوما: ما ترون في فضل فضل عندنا من هذا المال" مال الصدقة" قالوا: يا أمير المؤمنين. قد شغلناك عن أهلك وضيعتك فهو لك.

فالتفت إلى علي وقال: ما تقول؟ قال: قد أشاروا عليك. قال عمر: قل.

قال علي: لم تجعل يقينك ظنا؟ أتذكر حين بعثك رسول الله ﷺ ساعيا فأتيت العباس بن المطلب، فمنعك صدقته.

فقلت لي: انطلق إلى رسول الله ﷺ فوجدناه خاثرا. فرجعنا ثم غدونا عليه. فوجدناه طيب النفس فأخبرناه بالذي صنع..

فقال لك: أما علمت أن عم الرجل صنو أبيه؟ وذكرنا الذي كان من طيب نفسه في اليوم التالي فقال: أما أنكما أتيتماني اليوم وكان عندي من الصدقة ديناران. فكان الذي رأيتماه من خثوري له. وأتيتماني اليوم وقد وجهتهما غدا "صباح اليوم" فذاك الذي رأيتما من طيب نفسي.

* ودعا عمر امرأة فأجهضت ما في بطنها بفزعها فاستشار في الدية.

فقال له عثمان وعبد الرحمن: لا عليك. إنما أنت مؤدب.

وقال علي: إن كانا قد اجتهدا فقد أخطآ. وإن لم يجتهدا فقد غشاك. أرى عليك الدية.

فقال عمر: عزمت عليك ألا تبرح حتى تفرضها على بني عدي.. وهذه الفتوى تعتبر تقدما تحاول أن تبلغه الحضارة المعاصرة، ولا تكاد.

* ورأى عمر ذات يوم رجلا مع امرأة على معصية. فاستشار في أن يقضي بعلمه أم لا بد من شهادة غيره؟

قال علي: "يأتي بأربعة شهداء أو يجلد حد القذف شأنه في ذلك شأن سائر المسلمين".

* ولما فتح المسلمون الأمصار طلب الفاتحون لأنفسهم أربعة أخماس الأراضي المفتوحة أخذا بظاهر الآية. فاستشار عمر الصحابة. فاختلفوا. لكن عليا كان من الرأي الذي أخذ به

عمر، وهو إبقاء الأراضي في أيدي أصحابها وتكليفهم الخراج تسد من حصيلته حاجات الدفاع عن الأمة والإنفاق على المحتاجين.

وفي بقاء الأرض في أيدي أصحابها بقاء لهم أو لمن يجيئون بعدهم. وأثر هذه الفتوى في نشر الإسلام يذكر ويشكر.

* وعلي صاحب الرأي الشهير بتضمين الصناع ما يتلفونه إلا أن يثبتوا أنه من عمل غيرهم بعد إذ كانوا لا يضمنون لأن يدهم يد الأمين. لكن الزمان تغير فاقتضى تغير الناس التضمين. وفي ذلك قول علي: لا يصلح الناس إلا ذاك. وهذا مضرب المثل على العمل بقصد الشارع من حفظ مصالح المسلمين وتوخي المصلحة الإسلامية حيث تكون.

* ورفعت إلى عمر قضية رجل قتلته امرأة وخليلها. فتردد هل يقتل الكثيرين بالواحد؟ قال علي: أرأيت لو أن نفرا اشتركوا في سرقة جزور هذا عضوا وهذا عضو. أكنت قاطعهم؟ قال: نعم. قال علي: فكذلك.

فكتب عمر إلى عامله أن: اقتلهما فوالله لو اشترك أهل صنعاء كلهم لقتلتهم.

* وجئ عمر يوما بامرأة زنت وأقرت فأمر برجمها. لكن عليا قال: لعل بها عذرا. ثم سألها:ما حملك على ما فعلت؟ قالت: كان لي خليط وفي إبله ماء ولبن. ولم يك في إبلي ماء ولا لبن. وظمئت وظننت نفسي ستخرج أعطيته الذي أراد فسقاني. قال علي: الله أكبر (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه. إن الله غفور رحيم).

* لقد كان عمر على الحق إذ أمر ألا يفتي أحد بالمسجد وعلي حاضر. فجعل القضاء وقفا عليه في ساحة القضاء.

* وكان يقول اللهم لا تنزل بي شديدة إلا وأبو الحسن إلى جنبي[٣].

بل يحيل سائليه على علي ويجيب أذينة العبدي إذ يسأله: من أين أعتمر؟

إيت علي بن أبي طالب فاسأله.

بل يقول: لولا علي لهلك عمر.

* ولعلي عهده المشهور إلى الأشتر النخعي[٤] إذ ولاه مصر. فهو دستور سياسي وديني وعالمي يضؤل دونه كل العهود، بما فيه من شمول وتفصيل لقواعد الحكم الصالح. وإليه يرجع كل من أراد نجاحا للحكم بصلاح الدنيا والدين.

---

(٣) لا يتسع المقام في هذا الباب إلا لبعض أمثال:

* قاضاه خصم إلى عمر وناداه عمر: قم يا أبا الحسن. ولاحظ عمر أنه تألم فسأله. فقال: "تألمت إذ كنيتني ولم تكن خصمي فلم تسو بيننا".

* وقاضاه يهودي – وهو خليفة – في درع – ولم تكن للخليفة بينة. فقضى القاضي ضده، فأسلم اليهودي لما رأى من العدل.

* وأودعه قرشيان مائة دينار – لدى قرشية على ألا تدفعها لأحدهما دون الآخر. ولبثا حولا ثم جاء أحدهما وادعى أن الآخر مات. فدفعت إليه المال. ثم جاءها الآخر فأخبرته. فترافعا إلى علي وعرف علي أن الرجلين مكرا بها. فقال للرجل: أليس قلتما لها لا تدفعي لواحد دون صاحبه؟ قال بلى. قال اذهب فجئ بصاحبك. فذهب ولم يرجع.

وهذه اللفتات المرتجلة تصدر عن وحدة فكرية في أمور الإثبات والإجراءات وإدارة الجلسات وهي دلائل متضافرة على اقتدار مقطوع القرين "لعقل قضائي" أجمع الصحابة العظماء على أنه أقضاهم.

(٤) الأشتر أول من عبر التعبير الشهير في شأن معاوية حين سئل: أشهد معاوية بدرا؟ فأجاب:نعم من الجانب الآخر "أي جانب المشركين".

والمصريون – مسلمين ومسيحيين – يحفظون قوله فيهم لواليه: "وأشعر قلبك الرحمة بهم والمحبة لهم. واللطف بهم. ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم. فإنهم: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل".

* وعلي هو الذي يضبط فحوى الشرع ويرفعه إلى مقامه الحق في تعريفه للفقيه فيقول للمسلمين: "ألا أنبئكم بالفقيه. حق الفقيه؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله. ولم يرخص لهم في معاصي الله. ولم يؤمنهم من مكر الله".

* * *

كان منذ شبابه الذي أنضجته أحداث النزال والطعان في الميدان – أعبد الناس وأكثرهم في عبادته جمعا مع الله لا يقطع صلاته والسهام تقع بين يديه يمينا وشمالا. يربط على بطنه من الجوع في حين يتصدق بأربعة آلاف درهم، وعليه إزار غليظ اشتراه بخمسة دراهم. أما قوته فمن دقيق الشعير. يأخذ قبضة فيضعها في الماء فيصب عليها قدحا فيشربه.. وفي يده كل مال المسلمين!

ولما أصهر عمر إليه في "أم كلثوم" كان يتوسل إلى الآخرة بلحمة النسب. فلقد كان يقول: "لقد أعطي علي بن أبي طالب ثلاث خصال كل خصلة منها أحب إلي من حمر النعم: تزويجه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وسكناه المسجد مع رسول الله. يحل فيه ما يحل له".

ولم يبرح عمر المدينة في خلافته إلا استخلف عليا عليها. فلقد كان ذلك سنة عنده. أليس صاحبهما ﷺ كان يستخلفه، إذا برح المدينة؟

وعلي "باب مدينة العلم". يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأت بابه".

وهو "إمام البلاغة". يجئ معاوية رجل من الكذبة فيقول له: جئتك من عند أعيا الناس – يقصد عليا – فيجيب معاوية، وهو أعدى الناس لعلي:

"ويحك فوالله ما سن الفصاحة للناس غيره". كيف لا؟ وبلاغته من بلاغة النبي.. مذ كان فكره من فكره، وكان قد رباه فأحسن تأديبه، حتى ليعيا بلغاء العرب عن فهم المعنى النبوي ويراه علي بادي الرأي.

شكا العباس من مرداس للنبي قسمه من الفئ بقوله:

أتجعل نهبي ونهب العبيـ د كنهب عيينة والأقرع

"والعبيد فرس الشاعر. وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس من المؤلفة قلوبهم".

قال عليه الصلاة والسلام: "يا علي اقطع لسانه".

فأخذه علي ومضى.

قال العباس: أقاطع أنت لساني يا أبا الحسن؟

قال علي: إني لممض فيك ما أمر..

ثم مضى به إلى إبل الصدقة وقال له: خذ ما أحببت.

ومن "نهج بلاغته" يسقى بلغاء العربية وحكماء الإسلام. ومن تعليمه وضع النحو العربي(٥). ووضع النحو بتعليم علي يذكر بالمكانة الخاصة لعلي في علوم الإسلام. فالنحو

---

(٥) روى الأنباري في تاريخ الأدباء أن سبب وضع علي كرم الله وجهه لهذا العلم ما روى أبو الأسود الدؤلي (٦٧) حيث قال: دخلت على أمير المؤمنين علي فوجدت في يده رقعة فقلت: ما هذه يا أمير المؤمنين فقال: إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء "يعني الأعاجم" فأردت أن أضع شيئا يرجعون إليه ثم ألقى إلي الرقعة ومكتوب فيها: "الكلام كله اسم وفعل وحرف فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبئ به والحرف ما أفاد معنى" وقال لي: انح هذا النحو وأضف إليه ما وقع عليك واعلم يا أبا الأسود أن

العربي هو الذي حفظ العربية. لغة القرآن. وهو أمر أصولي للغة، كأصول الفقه. وسنرى موقفه المبدع فيها. وكذلك كانت مواقف علي بعد ظهور الإسلام، وفي خلافة سابقيه، تتصدى للأساسيات في الإسلام.

لقد كان أطول الراشدين حياة في الإسلام مما يظهر أثره عميقا، عمق الحوادث والعلوم وأثرها في الإسلام، وطويلا لطول المدة التي حييها في المراكز الأولى منذ ظهور الإسلام.

وربما أحمل القول في مكان علي بين المسلمين قول ابن عباس:

"لعلي أربع خصال ليست لأحد غيره: هو أول عربي أو أعجمي صلى مع رسول الله ﷺ وهو الذي كان لواؤه معه يوم الزحف. وهو الذي صبر معه يوم فر غيره. وهو الذي غسله فأدخله قبره".

الأسماء ثلاثة... ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر. وإنما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر "أراد بذلك الاسم المبهم" قال: ثم وضعت بابي العطف والنعت ثم بابي التعجب والاستفهام إلى أن وصلت إلى باب إن وأخواتها فكتبتها ما خلا "لكن" فلما عرضتها على أمين المؤمنين عليه السلام أمرني بضم لكن إليها. وكلما وضعت بابا من أبواب النحو عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية، فقال: ما أحسن هذا النحو الذي نحوت فلذا سمي النحو. وإن المرء ليلاحظ أن هذا الفتح العظيم في العلم كان من اهتماماته وهو أمير للمؤمنين. ليس لديه يوم واحد خلا من معركة أو استعداد لمعركة. وأن أبا الأسود هو واضع علامات الإعراب في المصحف في أواخر الكلمات بصبغ يخالف لون المداد الذي كتب به المصحف. فجعل علامة الفتح نقطة فوق الحرف. والضم نقطة إلى جانبه والكسر نقطة في أسفله والتنوين مع الحركة نقطتين ثم وضع نصر بن عاصم (٨٩) تلميذ أبي الأسود النقط والشكل لأوائل الكلمات وأواسطها ثم جاء الخليل بن أحمد (١٧٥) فشارك في إتمام بقية الإعجام.. والخليل شيعي كأبي الأسود. وهو واضع علم العروض وصاحب المعجم الأول وواضعالنحو على أساس القياس.

فاللغة العربية مدينة لعلي وتلاميذ علي. وكمثلها البلاغة العربية.

وعلي معدود من خطباء التاريخ العالمي بخطبه والمناسبات التي دعت إليها.

أما عن العلم فيقول ابن عباس: "إذا ثبت لنا الشئ عن علي لم نعدل إلى غيره". وأما عن العدل فيقول ابن مسعود معلم الكوفة وسادس المسلمين: "كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علي".

من أجل هذا وكثير غيره، صح عند الشيعة أن النبي أفضى إليه بظاهر الشريعة وخافيها. وأنه أفضى بها إلى من خلفه.

* * *

وليس يملك أحد أن يفاضل بين الخلفاء الراشدين الأربعة إلا باجتهادات تحتمل الخطأ والصواب. لقد بايعهم المسلمون بيعة صحيحة. وبايع علي الثلاثة السابقين عليه. فكانت بيعته شهادة لهم وله. فلهم جميعا مكانة الراشدين التي بوأهم الله إياها في الزمن الذي أراده.

ومن الحكمة أن ندرأ أسباب المراء والشحناء، فننتهي عن المفاضلة بين السابقين الأولين إلا لحاجة. وأولى الناس بذلك الصحابة الذين أمرنا بالاستغفار لهم، وألا نجعل في قلوبنا غلا لهم.

ولئن فاضل "الأشعري والغزالي" وبعض المتكلمين، بين الخلفاء الراشدين، فرتبوهم على حسب ترتيب استخلافهم، فربما كان الأرجح أن مجئ علي في آخر الخلفاء الأربعة تنحصر دلالته في أن الله تعالى أجاءه إلى حيث كان دوره – لا مرتبته – وهو الرابع. ولله الحكمة البالغة.

* * *

وعلي في كثير من الأمور هو الأوحد: فالنبي هو الذي رباه. وآخاه. وأعده للعظائم فصنعها. وعهد إلهي تبليغ آي القرآن.. وهي جميعا "خصوصيات" لا يرقى رقيه فيها أحد. أما ما لم يشركه فيه بشر فهو ما أجمعت عليه كتب الشيعة وشاركها فيه كثيرون من علماء أهل السنة

منذ القرون الأولى – كالمسعودي والحكم والكنجي _ حتى القرون الحديثة – كالألوسي، وهو أن عليا ولد بالكعبة.

وإذا كان للصديق مكان "الصديقية" فلعلي قوله عليه الصلاة والسلام: "علي مني وأنا منه".

وإذا كانت لعمر مكانة الفاروق، فعمر نفسه كان يتمنى لو كان له واحدة من ثلاثة من خصال علي.

وإذا كان عثمان ذا النورين بإصهاره إلى النبي في وجتين لعثمان. فعلي – وحده – صاحب النسب، والعقب، الباقي من رسول الله.

لقد كان الحسن والحسين يسميان الرسول أباهما. كما كان الرسول يسميهما ابنيه طول حياته. ولم يناديا عليا بأنه أبوهما إلا بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى رسول الله ﷺ.

الشيعة:

لعلي – على ما رأينا – من فضل الله ما سلمه الجميع له وتؤثره من جرائه الشيعة، منذ القرن الأول، أي جيل الصحابة. ثم تلاحق عليه الجيلان التاليان. وهي الأجيال الثلاثة المفضلة بقوله ﷺ: "خير القرون قرني – جيلي – ثم الذين يلونهم ثم الذين لونهم"، وتوالت على تكريمه به جماعة المسلمين إلا من ظلم. وهو موقعه الخاص من النبي ومن علوم الإسلام: إذ تتفرع عنه فروع النسب من أهل البيت. وتتبع منه بحار شتى للمعرفة تسقى منها المذاهب كافة. وفيها المتصوفة والمعتزلة، وتفيد منها العلوم كافة، ومنها العبادات والمعاملات والحرب والسلم والسياسة والاقتصاد والإدارة. فتطبع بطابعه العلوم الإسلامية عند الشيعة، وتظهر آثاره في علوم أهل السنة.

"والشيعة" كلمة قرآنية: (وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم).

والتشيع لعلي مكانة للفوز تقررت بالسنة – روى السيوطي عن جابر بن عبد الله قال: كنا عند النبي فأقبل علي فقال النبي: "والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة".

وعن ابن عباس قال: لما نزلت (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال رسول الله لعلي: "هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين".

وعن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي قال لعلي: "أنت وأصحابك في الجنة".

وفي نهاية ابن الأثير ما نصه في مادة "لواقح" "وفي حديث علي قال له النبي ستقدم على الله أنت "وشيعتك" راضين مرضيين ويقدم عليك عدوك غضابا مقمحين".

والزمخشري يروي في ربيع الأبرار حديث النبي عن "شيعة ولدك" وهو يتحدث إلى علي. وفي مسند أحمد بن حنبل وخصائص النسائي كثير في الدلالة على شيعة علي.

ويخصص المسلمون "الشيعة" بأنهم هم التابعون والمقتدون والمتميزون باتباعهم واقتدائهم الكامل بالإمام علي والأئمة من بنيه.

وربما كان تعريف ابن حزم للشيعة جامعا مانعا. فهو يقول: "من وافق الشيعة في أن عليا "أفضل"الخلق بعد رسول الله و"أحقهم" بالإمامة وولده من بعده، فهو شيعي. وإن خالفهم فيما عدا ذلك فيما اختلف فيه المسلمون. فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيا".

ظهر تفضيل الشيعة لعلي على جميع الصحابة بمجرد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، إذ دعت إلى ذلك دواع سياسية. فقد اجتمع المهاجرون والأنصار – وعلي مشغول بتجهيز رسول الله لقبره – فبايعوا أبا بكر باقتراح عمر. وثقل على بطل الإسلام علي أن يمضي الصحابة الأمور دونه، وثقل على الزهراء(٦) وعلى "شيعة علي" من صحابة الرسول. كما رأى البعض أحقية علي بالخلافة(٧).

---

(٦) لم يورث الخليفة الزهراء من أبيها. وقصد إليها مع عمر يذكران لها حديث الرسول في حرمانها من ميراثها. قال الصديق: إني سمعته ﷺ يقول: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث".

ثم قال الصديق: والله إن قرابة رسول الله أحب من قرابتي . وإنك أحب إلي من عائشة "بنته".

قالت: أرأيتكما إن حدثتكما حديثا عن رسول الله تعرفانه وتعملان به؟

قالا: نعم.

قالت: ألم تسمعا قول الرسول: "رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي".

قالا: سمعنا.

قالت: إني أشهد الله أنكما أسخطتماني، وما أرضيتماني. ولئن لقيت رسول الله لأشكونكما إليه. وخرجا يبكيان. فلقد كانت تبكي.

ولقد كانت لله لا للدنيا دموع الزهراء والصديق والفاروق!

وأهل السنة ينحون نحوهما في تفسير الحديث النبوي.

والشيعة لا يتسامحون في حرمان الزهراء ميراثها.

ومن الغلاة في الخصومة للشيخين من يقولون: إن عمر كان سبب البيعة لأبي بكر يوم السقيفة إذ قال له: امدد يدك أبايعك. وإن أبا بكر كان مصدر البيعة لعمر يوم استخلفه ليصرفا الأمر عن علي، مع أن البيعة كانت عامة من الأمة.

وأهل السنة على أن الصحابة اجتهدوا للمسلمين، وأن عليا أيدهم في اجتهادهم إذ بايع، بل تبع رأي عمر فيما بعد لما جعل "عمر" الأمر شورى في السنة. ثم كان أصدق المسلمين في طاعة عثمان.

(٧) ومنذئذ كانت لعلي شيعته. قال أبان بن تغلب: قلت لجعفر بن محمد "الصادق"جعلت فداك. هل كان أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أنكر على أبي بكر فعله؟ قال نعم: اثنا عشر رجلا. من المهاجرين: خالد بن سعيد بن العاص، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وبريدة الأسلمي، ومن الأنصار: أبو الهيثم بن التيهان، وسهل وعثمان ابنا حنيف، وخزيمة بن الثابت، وأبي بن كعب، وأيوب الأنصاري.

ولكن عليا لم يلبث أن كمل إجماع المسلمين بالبيعة للصديق، وجمل خلافة الصديق بالمشاركة والمشورة، وتحمل في خلافة الفاروق أعباء في أخطر شئون الدولة والدين والناس والخليفة.

لقد كان كله شجاعة نفس وسداد رأي يوم الردة. قالت عائشة رضي الله عنها: خرج أبي يوم الردة شاهرا سيفه راكبا راحلته. فجاء علي رضي الله عنه فأخذ بزمام راحلته وقال: أقول لك ما قال لك رسول الله ﷺ يوم أحد: "شم سيفك لا تفجعنا بموتك. فوالله إن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبدا".

ولقد كان كله شجاعة فكر، وبراعة فقه، يوم استشاره عمر في غزو الفرس بنفسه وكرر "أخو النبي" نصحه في بلاغة معلمة وأسانيد تترى. لكنه لم يذكر "السابقة" لعمر كما صنع مع أبي بكر. فالصديق هو إمام "الاتباع" الذي بلغ به مراتبه. أما عمر فهو "يجتهد" ويتبع. وعند علي من "الاتباع" و"الاجتهاد" ما يروي الشيخين معا:

قال لعمر بين ما قال: "إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة. وهو دين الله الذي أظهره.. ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه. فإذا انقطع النظام تفرق الخرز وذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبدا. والعرب اليوم وإن كانوا قليلا فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع. فكن قطبا واستدر الرحى بالعرب. وأصلهم دونك نار الحرب.

إنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع من الفورات أهم إليك مما بين يديك. إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا يقولوا هذا أصل العرب فإن قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك ومطمعهم فيك..".

فلنلاحظ.. هذه الخطة المتعددة الغايات بالحركة الواحدة: أن يبقى قطبا للرحى، وأن يستديرها بالعرب، وأن يجعلهم يحاربون العدو بدلا من الخليفة.

وأن يحميهم من تنازعهم ولم يكن قد مضى على توبة بعضهم من الردة إلا شهور. ولنلاحظ ذلك الاحتياط في الحرب حتى لا يجد العدو الخليفة غرضا قريبا في متناوله يستميت في إصابته.

ولنلاحظ تشبيه الخليفة بنظام العقد الذي يمسكه أن ينتثر.

ولنلاحظ الوجازة، والنصاعة، والبلاغة "العلوية"، ومستواها في لسان العرب.

ولما قبل الصديق والفاروق نصيحته في الحالين وضعته النصيحتان في موضعه معهما ومن المسلمين – وهو في صدر شبابه – في الصدارة.

ولا ينال من هذه العبقرية في وضع الخطط، ما سيصيبه والمسلمين معه، يوم يستحبون الدعة، بعد ربع قرن عندما آلت إليه المقاليد، وجاء إلى الوجود جيل جديد، فعلت الفتن فيه أفاعيلها. فأتاحت لعلي بدلا من إنفاذ خططه، أن يلقى خطبه الخالدة التي تعتبر مصادر للبلاغة العربية والحكمة السياسية والفلسفية على مر الزمان.فتخص الإمام بمقام بين خطباء التاريخ لا يرقى إليه أحد.

* * *

عهد الصديق لعمر فكان عهده له فتحا من الفتوح على أبي بكر والأمة، منذ كان عمر كأبي بكر مطلوبين للأحداث، ولم يكن لدى المسلمين ساعة ليشتوروا. فأرواح الشهداء تساقط في الميادين، في الشرق والشمال، بالعراق والشام، لتضئ العالم بأنوار الإسلام.

ولا يمكن أن يرد على الذهن أن أبا بكر، في عهده لعمر، فكر لحظة واحدة تفكير بعض قريش في أن تصرف الخلافة عن بني هاشم، مخافة أن تبقى وراثة فيهم، فلا تنال قريش حظوظها من السلطة. فإنما كانت هذه الفئة في فكرها ظالمة لنفسها ولبني هاشم، بمثل ما قد طالما ظلمت الصديق والفاروق معا.

فلقد عهد الفاروق لعلي بين الستة الذين عهد إليهم أن يختاروا للمسلمين من يبايعونه. وهو القائل عن علي: "لو ولوه لحملهم على الجادة". وكان الجميع يعلمون أن الخلافة دائرة بينه وبين عثمان.. ولم يشأ عمر أن يحمل مسئولية الاختيار – وهو طعين – وكانت المشورة ممكنة، لا خطرة، كما كانت عند وفاة أبي بكر.

ولما جاء دور علي – وهو طعين – لم يفكر في أن يعهد لواحد من بني هاشم. بل قيل له: "إن فقدناك – ولا نفقدك – هل نبايع الحسن؟" فأجاب: "لا آمركم ولا أنهاكم. أنتم أبصر". وترك الأمر شورى للمسلمين.

وكذلك ليس من الدقة أن يستنتج من تقدير عمر لعلي أو لأهل البيت أو لأم كلثوم بنت علي – وهي تحت جناح عمر – أن عمر كان يتمنى شيئا خاصا لعلي في صدد الخلافة. فلقد كان عمر ينظر لمصلحة المسلمين أجمعين، يوم عهد إلى الستة أن يختاروا واحدا منهم يبايعه المسلمون..

كان عمر ينظر لمصلحة المسلمين يوم دون الديوان. فدعا الأخ الأكبر لعلي، عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم، وقال لهم:

"اكتبوا الناس على قدر منازلهم" فكتبوهم مبتدئين ببني هاشم ثم ببني تيم – قبيلة أبي بكر – ثم بني عدي – قبيلة عمر – فقال: "وددت أنه هكذا ولكن ابدءوا بقرابة النبي ﷺ الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله".

ويوم فضل بعض الناس في العطاء جزاء ما قدموا للإسلام. فلما ذكر له صنيع أبي بكر يوم رفض التفضيل وقال: "إنما أسلموا لله. ووجب أجرهم عليه يوفيهم ذلك في الآخرة. وإنما هذه الدنيا بلاغ" أجاب عمر: "لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه...".

ويوم فضل أهل بدر على من عداهم. ثم جعل الباقين درجات. ومع ذلك قدم الأدنين من رسول الله دون نظر إلى جهاد أو سابقة إسلام. ففرض للعباس – عم النبي – اثنى عشر ألف

درهم. ولأخته صفية عمة النبي وعلي ستة آلاف.. ولكل واحدة من زوجات النبي عشرة آلاف. وميز عائشة لمحبة رسول الله إياها فجعل لها اثنى عشر ألفا.

ويوم فضل الحسن والحسين إذ فرض لكل واحد شهد بدرا خمسة آلاف، ولأبنائهم ألفين ألفين، إلا الحسن والحسين ابني علي من فاطمة الزهراء ألحقهما بفريضة أبيهما لقرابتهما من رسول الله. ففرض لكل منهما خمسة آلاف.

حتى أسامة بن زيد بن حارثة – مولى الرسول – فرض له أربعة آلاف. وأجاب ابنه عبد الله – فقيه المسلمين ومحدثهم – إذ راجعه قائلا: "فرضت لي ثلاثة ولأسامة أربعة، وقد شهدت ما لم يشهد أسامة" فقال لابنه: "زدته لأنه كان أحب إلى رسول الله منك. ولأن أباه كان أحب إلى رسول الله من أبيك".

وعبد الله أخ شقيق لحفصة أم المؤمنين.

ولما فرض لعمر بن أم سلمة – أم المؤمنين – أربعة آلاف، وكان من شيعة علي، استعتب البعض الخليفة لحداثته فأجاب: فليأتني الذي استعتب بأم مثل أم سلمة أعتبه".

وأم المؤمنين أم سلمة أعلى الأصوات في الدفاع عن علي.

ولقد كان عمر صادقا يوم عدل إلى رأي أبي بكر وقال: "لئن بقيت إلى العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم ولأجعلنهم رجلا واحدا"[٨].

---

(٨) ربما أوضح أن المال – بالنسبة للصحابة رضوان الله عليهم – لم يكن وسيلة للثراء وإنما كان حقا لهم يجئ من بيت المال، لينفقوه في وجوهه، ومساعدة المحتاجين، أن أم المؤمنين زينب بنت جحش تصدقت بالمال كله. وتمنت أن تموت قبل أن يحول الحول. فاستجاب لها ربها فكانت أسرع زوجات الرسول لحوقا به. وأن أم المؤمنين عائشة لم ترض أن تتماز عن أمهات المؤمنين. وأن أموالهن كانت تجري إلى المسلمين.

وروى الطبراني وأبو نعيم عن خزيمة بن أوس قال: قدمت على النبي يوم تبوك فسمعته يقول هذه الحيرة قد رفعت إلي، وإنكم ستفتحوها. وهذه الشيماء بنت نفيل الأزدي على بغلة سوداء معتجرة بخمار أسود – فقلت:

وجرى قضاء الله بأن يطعن أبو لؤلؤة المجوسي عمر في المسجد فبعث عمر إلى قوم كانوا يجلسون بين منبر الرسول وقبره من يقول: يقول لكم عمر: أنشدكم الله. أكان ذلك عن رضا؟ فتلكأ قوم. فقال علي: "وددنا أنا زدنا في عمره من أعمارنا" – هكذا أصاب البعض الحصر. وواتت عليا الإجابة المواسية. وهي يقين عند عمر.

أوصى عمر أن تكون الخلافة لواحد من الستة الذين مات النبي وهو عنهم راض. ثم اختاره الله إلى جواره. واجتمع أصحاب الشورى وأدار المداولات عبد الرحمن بن عوف، مذ أعلن أنه لن يكون له في الخلاف أرب. واستجوب الناس حتى استيقن من تحقيقاته أن لكل من علي وعثمان مؤيدين في جماعة المسلمين – فرقى المنبر وجلس مجلس النبي وأخذ بيد علي وقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر؟

قال علي: اللهم لا. ولكني أحاول من ذلك جهدي وطاقتي.

فأرسل عبد الرحمن يده وقال: هلم إلي يا عثمان. فأخذه بيده وقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر. قال عثمان: اللهم نعم..

قال عبد الرحمن: اللهم اشهد.. اللهم اشهد.. وبايع عبد الرحمن عثمان. وقام الناس فبايعوا.. وفيهم علي بن أبي طالب.

وظاهر أن فيصل التفرقة بين الجوابين هو قول علي: أحاول جهدي وطاقتي وهو جواب رجل طالما حاول جهده وطاقته للنبي، ولأبي بكر وعمر. كما صنع أبو بكر وعمر، وكنا سيصنع

يا رسول الله. إن نحن دخلنا الحيرة فوجدنا على هذه الصفة فهي لي؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "هي لك". فأقبلنا مع خالد نريد الحيرة فلما دخلناها كان أول من تلقانا الشيماء على بلغة سوداء معتجرة بخمار أسود فتعلقت بها وقلت: هذه وهبا رسول الله لي.

فطلب مني خالد البينة. فأتيته بها. فسلمها لي. ونزل إلينا أخوها عبد المسيح فقال لي: أتبيعنيها؟ قلت نعم. قال: احتكم. قلت: لا أبيعها بأقل من ألف درهم. فدفعها.فقيل لي: لو قلت مائة ألف لدفعها! قلت: لا أحسب مالا أكثر من ألف درهم. قال الطبراني: وبلغني أن البينة كانت محمد بن مسلمة وعبد الله بن عمر.

علي في خلافته وسيصنع عثمان في خلافته. فلا عليه إن أجاب ذلك الجواب الفقهي، الصادق. من كل وجه. لكن الشماء لم ترد أن يرضى ذلك الجواب عبد الرحمن، لتكون الخلافة يومئذ لعثمان بن عفان، باختيار من المسلمين، في حدود ما قدرته السماء. وكان في المسلمين يومئذ شبه إجماع على أن الخلافة آيلة إلى علي بحكم سنه.

obeikandl.com

الفصل الثاني

أبو الشهداء

"هذان ابناي وابنا بنتي. اللهم إني أحبهما. فأحبهما. وأحب من أحبهما".

"حديث شريف"

"هما ريحانتاي من الدنيا". **"حديث شريف"**

مضت سنوات ست على عثمان في الخلافة وهو راض مرضي يحدر إلى الثمانين أو منها، أعقبتها ست أخرى، منها أربعة تتناهى إلى سمعه فيها وشوشة الشكوى من كل صوب. ومنها اثنتان يتعالى فيهما تشويش المشوشين ممن لا يصبرون. ومراجعة الذين يتحملون المسئولية معه: غاضبه عبد الرحمن بن عوف الذي اختاره للمسلمين. وغضب هو على عبد الله بن مسعود وعلى أبي ذر – أصدق الناس لهجة – وعلى عمار بن ياسر، الذي واعده الرسول وأباه وأمه على الجنة. وهذان الأخيران، منذ انفجر فجر الإسلام، شيعة علي.

أما ابن مسعود فهو القائل يوم اختيار عثمان: بايعنا أفضلنا ولم نأل. وأما عبد الرحمن فقد أوصى لعثمان بين أهل بدر. ولما مات أخذ نصيبه.

ونفى عثمان أبا ذر من المدينة إلى الربذة[٩] أو نفى أبو ذر نفسه، احتجاجا على ما صار إليه أمر معاوية وعثمان.

---

(٩) قرية على مبعدة ثلاثة أيام من المدينة

في هذه الفترة الأخيرة اجتمع الناس فتذاكروا الأحداث، وكلفوا عليا أن يكلم عثمان كما روى الطبري في أحداث سنة ٣٤. وعلي وعثمان صهران للرسول: الأول في زهراء الرسول والثاني في ابنتي الرسول.

والرسول يقول وهو يزوجه: "لو كن عشرا لزوجتهن عثمان". ونصح علي عثمان أغلى النصيحة، وأجابه عثمان بمبرراته في تعيين الولاة من أهله، ومما قال: "إن معاوية عينه عمر". قال علي: "لكنه كان أخوف له من خادمه يرفا".

واستمر الناس في ضيقهم بالأمور، حتى إذا كان الموسم حج الولاة فجمعهم عثمان للمشورة فكانوا معاوية بن أبي سفيان "الشام" وسعيد بن العاص "الكوفة" وكلاهما ابن عم لعثمان(١٠). وعبد الله بن سعد بن أبي سرح "مصر" وهو أخو عثمان من الرضا. وعبد الله بن عامر "البصرة" وهو ابن خال عثمان(١١) فلما انصرفوا إلى أقاليمهم رد أهل الكوفة سعيد بن العاص، وطلبوا أن يتولى عليهم أبو موسى الأشعري، فولاه عثمان وأرسل المصريون في سنة ٣٥ وفدا للعمرة يناظرون عثمان في سياسة ولاته وكان علي ومحمد بن مسلمة رسولي السلام بين الخليفة وبين الناس(١٢).

---

(١٠) كان أبو سفيان إحدى تبعات معاوية، أرسل معه من دمشق أموالا وأغلالا إلى عمر ليظهره على الأغلال التي كان أسارى المسلمين مقيدين بها في حصون الروم. فلما رجع أبو سفيان إلى المدينة ذهب إلى عمر بالأغلال ولم يذهب بالمال. فسأله عمر: أين المال؟ قال: كان علينا دين ومئونة ولنا في بيت المال حق. فإذا أخرجت لنا شيئا؟ قال عمر: اطرحوه في القيود حتى يأتي بالمال.. فأرسل أبو سفيان فجاء بالمال.

(١١) عبد شمس أخو هاشم جد النبي. وهما ابنا عبد مناف. ولعبد شمس بنون: منهم حبيب جد عبد الله بن عامر.

ومنهم أمية أبو حرب والد أبي سفيان، والد معاوية.

ومنهم أبو العاص وله أبناء منهم عفان أبو عثمان. والحكم بن مروان. ومروان كاتب عثمان ومنهم أبو عمرو وله أبناء منهم أبو معيط جد الوليد بن عقبة الذي حده عثمان للخمر، وهو وال له. ومنهم العاص أبو سعيد أحد ولاة عثمان.

ومنهم أبو العيص جد عتاب بن أسيد عامل النبي على مكة. حيث ولى النبي أعداءه السابقين ولم يول أهله.

(١٢) راجع مالك بن أنس إمام دار الهجرة للمؤلف طبعة دار المعارف حيث تفصيل أكثر للخلاف بين أهل المدينة وعثمان.

وأقبل بعض بني أمية يحرسونها، لكن الحراسة الحق كانت حراسة أبناء الصحابة: الحسن بن علي، والحسين بن علي. وعبد الله بن عمر ومحمد بن طلحة وعلي إمرتهم عبد الله بن الزبير إذ عينه الخليفة. وأمر الرجال ألا يحاربوا أحدا. ولم يخرج الخليفة للحج وأمر عليه عبد الله بن العباس.

ولم يقدم للحج أحد من ولاة عثمان هذا العام، فلم يكن ذلك مفهوما لأحد، إلا أن يكون تقصيرا من الولاة.. وليس في المدينة جند. فهي كما يقول الرسول "حرم آمن". وإنما الجند في الأقاليم وبخاصة في الشام حيث معاوية.

ولما تلا ابن عباس خطاب الخليفة على الحجيج لم يخفوا لنصرته.. وأصبح عثمان صائما غداة ليلة، وبقى يحدث الحرس ألا يقاتلوا. حتى أقبل الثوار وقتلوه.

* * *

اجتمع أصحاب الرسول بعد مقتل عثمان يشتورون، وفيهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام،فأتوا عليا وقالوا: لابد للناس من إمام.فقال لهم والضيق يغلب على نفسه: "لا حاجة لي في أمركم. فمن اخترتم رضيت به". قالوا: ما نختار غيرك. وألحوا. وهو يرفض ويقول: "لأن أكون وزيرا خير من أن أكون أميرا". قالوا: والله ما نحن منصرفين عنك حتى نبايعك.

ولما رأى إلحاح القوم خرج إلى المسجد وبايعه الناس. فصعد المنبر وقال: "أيها الناس. عن ملأ وأذن. إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم. وقد افترقنا أمس على أمر، وكنت كارها لأمركم، فأبيتم إلا أن أكون عليكم. ألا وإنه ليس لي دونكم إلا مفاتيح أموالكم معي. وليس لي أن آخذ درهما دونكم.

وفرق أمير المؤمنين عماله في الأمصار، وتوقف بعض الناس في بعض الأمصار، فجمع رجلي شوراه، طلحة والزبير، فقال: "إن الأمر الذي كنت أحذركم قد وقع، وافترق المسلمون وسأمسك الأمر ما استمسك. فإذا لم أجد بدا فآخر الدواء الكي". وكتب إلى الأمصار فأجمعت الطاعة إلا معاوية بن أبي سفيان بالشام. حبس رسول أمير المؤمنين إليه ثلاثة أشهر، ثم بعث

برده يصدره بقوله: من معاوية إلى علي. كأنه ند له! بل طالبه فيه بدم عثمان. كأنام علي هو الذي قتله! وكأنما معاوية صاحب دمه! وهو واحد من تاركيه بالمدينة، للثوار، بلا نجدة! وعبأ معاوية جيشه لقتال علي.

وفيما كان علي يتجهز لقتال معاوية أتاه الخبر أن طلحة والزبير قد نقضا البيعة وأنهما، ومعهما أم المؤمنين عائشة وأهل مكة، خالفوه، وخرجوا عليه، قاصدين إلى البصرة، فنهد للحرب. وكانت وقعة الجمل حيث انتصر، وذكر يوم ذاك الزبير بقول النبي للزبير: "لتقاتلنه وأنت ظالم له" فترك الزبير حربه، وندم طلحة قبل أن يستشهد.

ثم رجع أمير المؤمنين يسوي حسابه مع جيش الشام بقيادة معاوية، وتلاقى الجيشان في صفين[١٣] وفيها استشهد عمار بن ياسر، وهو في التسعين من العمر. وفيه قول الرسول: "تقتلك الفئة الباغية". وهو حكم على جيش معاوية.

أما أمير المؤمنين يومئذ ففيه قول ابن عباس جوابا لرجل سأله: أكان علي يباشر القتال في صفين؟: "والله ما رأيت رجلا أطرح لنفسه في متلفة مثل علي، رضي الله تعالى عنه. ولقد كنت أراه يخرج حاسرا عن رأسه بيده السيف إلى الرجل الدارع فيقتله".

تراءت بشريات النصر للبطل الذي تعود النصر،فرفع جيش الشام المصاحف على أسنة الرماح طالبين تحكيم كتاب الله بينهم، فأبى علي أن يحارب والمصاحف مرفوعة. وتمت خدعة التحكيم باختيار معاوية عمرو بن العاص حكما يمثله، واختيار أصحاب علي أبا موسى الأشعري، وخديعة عمرو لأبي موسى. إذ راوده على أن يخلع كل منهما صاحبه ويتركا الأمر للمسلمين يختارون من يشاءون. فقبل – ثم قدم عمرو أبا موسى فخلع صاحبه. فلما جاء دور عمرو ثبت صاحبه...!

---

(١٣) شهد صفين مع علي ألفان وثمانمائة من الصحابة.. منهم سبعة وثمانون من أهل بدر وتسعمائة من الأنصار ومن بايعوا بيعة الرضوان.

وخرج من أصحاب علي جماعة لقبوله التحكيم فيما هو حق له. فحاربهم وانتصر عليهم في "النهروان" وأطلق عليهم المسلمون اسم "الخوارج".

وأخذ يعبئ جنده لمنازلة جيش الشام، وبدا على جنده آثار التعب من القتال، وعلى جيش معاوية آثار شرائه للرجال. وانقسم المسلمون فهذا حزب علي. وهذا حزب معاوية! والذين عاصروا الإسلام منذ ظهوره، كالذين درسوه والذين صدقوا فيه، يفهمون المرارة في قول أمير المؤمنين: "أنزلني الدهر حتى قيل علي ومعاوية!".

رضي الله عن أمير المؤمنين وأرضاه. فما كان ذلك ليقع إلا في آخر الزمان الذي قدره الله للخلفاء الراشدين(١٤). وفي آخر الأيام التي قدرها الله لحياته.

---

(١٤) أما أهل السنة فيمثل رأيهم إمام أهل السنة أحمد بن حنبل إذ سئل من الخلفاء؟ وأجاب: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم. قال السائل: فمعاوية؟ قال أحمد: "لم يكن أحد أحق بالخلافة في زمن علي من علي. ورحم الله معاوية". ولما ذكر عنده سير عائشة مع طلحة والزبير قال: فكرت في طلحة والزبير. أهما كانا يريدان أعدل من علي بن أبي طالب؟ رضوان الله عليهم أجمعين – وجاءه يوما جماعة فأكثروا القول وأطالوا في خلافة علي فرفع إليهم رأسه وقال: إن الخلافة لمتزين عليا ولكن عليا زينها.

ومثل الشافعي رأي المسلمين عندما قال رجل: "ما نفر الناس من علي إلا لأنه كان لا يبالي بأحد" فبهته الشافعي بقوله: "كان له أربع خصال لا تكون واحدة منها لإنسان إلا ويحق له ألا يبالي بأحد: أنه كان زاهدا، والزاهد لا يبالي بالدنيا وأهلها. وكان عالما، والعالم لا يبالي بأحد. وكان شجاعا، والشجاع لا يبالي بأحد. وكان شريفا، والشريف لا يبالي بأحد".

وأما الخوارج على جيشه فكانوا ثمانية آلاف دعاهم ليزيل شبهتهم. فأبوا أن يجيئوه إلا أن يقر بالكفر على نفسه ثم يتوب، فحاربهم ونصره الله عليهم. ثم حاربوا الأمويين والعباسيين. ومع تكفيرهم الكثيرين من جمهور المسلمين بدعوى التهاون في الدين فالمسلمون لا يكفرونهم لأنهم متأولون. وأمير المؤمنين علي يعلم المسلمين ذلك بقوله عنهم: "إخواننا بغوا علينا".

وفقه علي في معاملة العدو وفي الحرب عنوان على علم الإمام وحلمه. فهما من علم النبي وحلمه.

إذا كانت هند بنت عتبة "أم معاوية" مثلت بجثة أسد الإسلام حمزة يوم أحد، وقال النبي يوم ذاك "ما وقفت موقفا قط أغيظ لي من هذا" فلما جاءه يوم فتح مكة "وحشي" قاتل حمزة اكتفى بقوله: "ويحك غيب عني وجهك". وقال يوم ذاك لهند بنت عتبة، آكلة الأكباد: "مرحبا بك". وقال للأعداء: "أنتم الطلقاء"،فلقد صنع علي صنيعه "يوم الجمل" عندما ظفر بابن الزبير فاكتفى بأن قال له: "لا أرينك بعد اليوم" وظفر بسعيد بن العاص فأعرض عنه. وظفر بأهل البصرة فصفح الصفح الجميل.

لقد طعنه عبد الرحمن بن ملجم في السابع عشر من رمضان سنة ٤٠، باتفاق بينه وبين زميلين من "الخوارج" أن يقتلوا عليا ومعاوية وعمرا. فأصيب معاوية في عجزه، ولم يصب عمرو إذ لم يخرج للصلاة وأناب نائبا عنه فقتل.

أمر معاوية بالرجل فقتل، وأمر عمرو برجله فقتله، لكن أمير المؤمنين أمر باستبقاء قاتله قائلا – وهو الطعين المشرف – إنه إذا عاش فهو ولي دمه. وإذا مات فإنه ينهى عن المثلة. ليعلم الناس الدين، كمثل ما علم العالم جميعه "قوانين الحرب والسلام" في حروبه في "الجمل" سنة ٣٥، و"صفين" سنة ٣٦، و"النهروان" سنة ٣٧. فتداولتها المذاهب الأربعة لتقدمها هدية من فقه الإسلام للقوانين المعاصرة.

ومات أمير المؤمنين بعد يومين عن ٦٥ أو ٦٣ عاما، وأربعة أعوام وتسعة أشهر ويوم واحد في خلافة كلها معارك.

ولما مات لم يوجد بخزائنه إلا ستمائة درهم استبقاها ليشتري بها خادما. بل – وكما لخص حياته سفيان الثوري – "ما بنى لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وإن كان ليؤتى بحبوته في جراب". الحبوة الخراج.

وكما يقول محمد بن كعب القرظي: "سمعت علي بن أبي طالب يقول: لقد رأيتني وأنا أربط الحجر على بطني من الجوع وإن صدقتي لتبلغ ذلك اليوم أربعة آلاف دينار".

ولما قال معاوية لضرار من ضمرة: صف لي عليا، قال فيما قال: كان بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلا. ويحكم عدلا. يتفجر العلم من جوانبه. وتنطق الحكمة من لسانه. يستوحش من الدنيا وزهرتها. ويستأنس بالليل ووحدته. وكان – والله – غزير الدمعة، طويل الفكرة يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن. وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه. ويبتدئنا إذا أتيناه.. ونحن – والله – مع تقريبه لنا ودنوه منا لا نكلمه هيبة له. لا يطمع القوي في باطله ولا ييئس الضعيف من عدله.. يبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا إلي تعرضت أم إلي تشوفت. فهيهات، هيهات. غري غيري".

* * *

بايع المسلمون الحسن بن علي أميرا للمؤمنين. فخرج بجيش قوامه أربعون ألفا للقاء جيش معاوية. وتخاذل جنده كهيئة تخاذل الجند بين يدي أبيه. وجرت البرد بينه وبين معاوية فأحدث بينه وبين معاوية صلحا بعد خلافة دامت ستة أشهر وخمسة أيام "لعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين". فذلك قول جده عليه الصلاة والسلام.

ودخل المتصالحان الكوفة. فسمى البعض عامهما هذا عام الجماعة. وأسماه الجاحظ (عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة).

حدث الشعبي قال: شهدت خطبة الحسن رضي الله عنه حين صالح معاوية وخلع نفسه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أما بعد فإن أكيس الكيس التقى. وإن هذا الأمر الذي اختلفت أنا ومعاوية فيه، إن كان له فهو أحق به مني، وإن كان لي فقد تركته إرادة لإصلاح الأمة وحقن دماء المسلمين. وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين".

ورجع الحسن إلى المدينة. وعوتب على صلحه فقال: "اخترت ثلاثا على ثلاث. الجماعة على الفرقة،وحقن الدماء على سفكها، والعار على النار".

وليس بغير هذا يتكلم الحسن. فلقد كان رجل عبادة وسلام للناس. خرج من ماله مرتين. وقاسم الله ثلاث مرات. وحج عشرين حجة ماشيا من المدينة إلى مكة وكان من شروط الصلح أن يكون الأمر للشورى بعد معاوية.

وفي ربيع الأول سنة ٤٩هـ. شعر بالسم يسري في جسده لتبدأ به سلسلة أئمة أهل البيت الذين يموتون مسمومين على أيدي بني أمية وبني العباس. فأوصى للحسين. وقال: "إذا مت فافدني مع جدي ما وجدت لذلك سبيلا".

لكن مروان بن الحكم والي معاوية على المدينة منع من تنفيذ الوصية، فدفن الحسن بالبقيع. وسيدفن معه في قبره أئمة أهل البيت الرابع والخامس والسادس. فأكرم به قبرا: فيه أمير

المؤمنين الحسن، وعلي زين العابدين – بن الحسين – وابنه محمد الباقر وابن الباقر: "جعفر الصادق".

* * *

لما مات الحسن كبر أهل الشام. فقالت فاختة بنت قريظة لمعاوية. أعلى موت ابن فاطمة تكبر؟ قال: ما كبرت شماتة بموته ولكن استراح قلبي.

وقال له ابن عباس: والله يا معاوية لا تسد حفرته حفرتك ولا يزيد عمره في عمرك..

وطلب معاوية البيعة لنفسه من محمد بن مسلمة الفدائي الثاني من أصحاب الرسول – إذ علي الفدائي الأول(١٥) – فقال له: "لعمري يا معاوية ما طلبت إلا الدنيا ولا اتبعت إلا الهوى،

---

(١٥) أول عمل فدائي في الإسلام قام به علي ليلة نام في فراش النبي.

ومحمد بن مسلمة هو الرجل الثاني في هذه المدرسة. سمع الرسول يقول – في المدينة – من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله – وكان كعب يؤذي المسلمين بهجائه ويحرض قريشا عليهم – فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: نعم. قال: فأذن لي أن أقول شيئا "مما يتقرب به إلى كعب وهو بحسب الظاهر طعن في الإسلام" قال النبي: قل ما بدا لك – فأتاه محمد بن مسلمة في نفر من الأنصار منهم أبو نائلة أخو كعب من الرضاع.

قال ابن مسلمة: يا كعب إن هذا الرجل "يعني النبي" قد عنانا بالصدقات وإني قد أتيتك أستسلفك. قال كعب: والله لتملنه. قال ابن مسلمة. قال ابن مسلمة: إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى تنظر ما يكون من شأنه. وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين. قال: فارهنوني أبناءكم. قال ابن مسلمة: كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين. نرهنك السلاح. فقبل... وتواعدوا على الليل حتى جاءوه فنزل إليهم من حصنه فضربوه بأسيافهم فقتلوه.

وكان ابن مسلمة. يسمى "فارس رسول الله". كان على رأس مائة فارس يسبقون المسلمين طلائع لهم يوم الحديبية. واستخلفه الرسول على المدينة عندما سار بجيش العسرة ليرد الروم إلى تخوم شبه الجزيرة بعد فتح مكة.

وكان سعد بن أبي وقاص بطل القادسية وفاتح العراق، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومنهم الراشدون الأربعة. والرسول يقول عنه: هذا خالي. فليأت كل فتى بخاله! وقد دعا له الرسول بالاستجابة لدعائه، فكان الكل يخشى أن يدعو عليه. لكن عمر بلغه أن سعد بن أبي وقاص بنى لنفسه قصرا وجعل عليه حاجبا

ولئن كنت نصرت عثمان ميتا لقد خذلته حيا. ونحن ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار أولى بالصواب".

ولما دخل سعد بن أبي وقاص على معاوية قال: السلام عليك أيها الملك. قال معاوية: ما كان عليك يا أبا إسحق إن قلت أمير المؤمنين؟

كتب معاوية إلى عماله بنسخة واحدة "انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب عليا وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه" وأمر من يأتمرون بأمره ألا يرووا أحاديث فضائل علي وشيعته، ثم تمادى، فكلف ولاته أن يلعنوا عليا ومن أحبه على المنابر. فكتبت إليه أم المؤمنين أم سلمة تقول: "إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم لأنكم تلعنون عليا ومن أحبه وأشهد أن رسول الله ﷺ أحبه".

ولما دانت الدنيا لمعاوية قيل له: قد بلغت ما بلغت. فلو كففت عن الرجل؟ قال: "لا والله حتى يربو عليها الصغير ويهرم الكبير".

فبعث إليه محمد بن مسلمة ليحرق عليه القصر وكتب إلى سعد يقول: "بلغني أنك بنيت قصرا اتخذته حصنا وسميته بيت سعد.. وجعلت بينك وبين الناس بابا. فليس بقصرك. ولكنه قصر الخبال" وصنع محمد بن مسلمة – وعاد بسعد وبالشاكين إلى عمر. فضن عمر بسعد عليهم ورفض أن يعيده إلى بلدهم.. وقال لعثمان: إني لم أعزله عن خيانة. ووضعه بين الستة أصحاب الشورى.

ولما دارت المكاتبات بين عمر وعمرو بن العاص. فاتح مصر – بعث إليه محمد بن مسلمة وكتب إليه يقول: "إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن لك حين وليت مصر" وأجاب عمرو إن أرضنا أرض زرع وشجر ونحن نصيب فضلا عما نحتاج لنفقتنا. ورد عمر: "إني خبرت من عمال السوء ما كفى وكتابك إلي كتاب من أقلقه الأخذ بالحق. وقد سؤت بك ظنا. ووجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك. فأطلعه طلعك. وأخرج إليهما يطالبك. واعفه من الغلظة. فقد برح الخفاء".

فقاسم محمد عمرا، وعمرو يقول متوجعا:"إن زمانا عاملنا فيه ابن حنتمة "أم عمر" هذه المعاملة لزمان سوء. لقد كان العاص يلبس الخز بكفاف الديباج" قال محمد: "لولا زمان ابن حنتمة هذا الذي تكر، ألفيت معتقلا عنز بفناء بيتك" قال عمرو: "أنشدك الله لا تخبر عمر بقولي فإن المجالس بالأمانة" قال محمد "لا أذكر شيئا مما جرى وعمر حي".

ولو عاش بضع سنين بعد عام موته لشهد انهيار دولته وانتهاء أسرته – أما الذين جاءوا بعده فسيشهدون صعود الشمس في السماء معلنة حق علي، مؤذنة بظهور أهل بيت النبي.

جعل معاوية الخلافة ميراثا لابنه يزيد، بالسف على رؤوس أبناء الصحابة جهرة. وبالرعب في قلوب المستضعفين، وبالرشى في جيوب الآخرين!

أما الحسين بن علي فلم يستدرج ولم يستضعف وأبى أن يبايع ليزيد.

وأما عبد الرحمن بن أبي بكر فقال لمعاوية كلمته الخالدة في خلافته وخلافة ابنه ومن جاءوا بعده: إنهم جعلوها "هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل".

وعبد الرحمن بن أبي بكر هو جد "جعفر الصادق" من ناحية أمه وأمها. أما الحسين فجده منن ناحية أبيه.

وكان رأي محمد بن مسلمة وسعد بن أبي وقاص أن معاوية، صاحب ملك.. ولكن ملك معاوية كان بصلح مشروط. فلما خرج على الشروط، أمسى حقا لكل مجتهد أن يقول فيه اجتهاده، في المرة الأولى والمرة الآخرة.

ولقد قال أمير المؤمنين على قوله فيه. وكشف الله لحكمة الإمام وجه الحق فيما صار إليه أمر معاوية وأمور المسلمين. فحسبنا وحسبه قول علي فيه – وقد أسلفناه – بل قول النبي لعمار عن جيش معاوية: "تقتلك الفئة الباغية".

أما عمرو فلأئمة السنة فيه ما يكفيه.وحسبه قول الشافعي فيه، حول أساطين جامعه، حيث راح الشافعي يروي بعد قرن ونصف قرن في "جامع عمرو" بفسطاط مصر، دخول ابن عباس على عمرو، وهو ابن بضع وثمانين، وقول عمرو: أصبحت وقد ضيعت من ديني كثيرا وأصلحت من دنياي قليلا، فلو كان الذي أصلحت هو الذي أفسدت والذي أفسدت هو الذي أصلحت لقد فزت.. فعظني بعظة أنتفع بها يا ابن عباس. قال ابن عباس: هيهات.. قال عمرو:

ابن بضع وثمانين وتقنطني من رحمة الله! ثم رفع يديه وقال: اللهم إن ابن عباس يقنطني من رحمتك. فخذ مني حتى ترضى.

قال ابن عباس: هيهات يا أبا عبد الله. تأخذ جديدا وتعطي خلقا.

قال:من لي منك يابن عباس. ما أرسل كلمة إلا أرسلت نقيضها!

والمسلمون يتناقلون قول الشافعي في جامع عمرو عن عمرو: قدم ابن عمامة على عمرو فألفاه صائما وقد أحضر إخوانه طعاما، وصلى صلاة فأتقنها. ثم أتى بمال فأمر بتفريقه. قال ابن عمامة: يا أبا عبد الله واتاك مال أنت به أحق من غيرك ففرقته. بم ذاك يا أبا عبد الله؟ قال: ويحك يا ابن عمامة فلو كانت الدنيا مع الدين أخذناها وإياه. ولو كانت تنحاز عن الباطل أخذناها وتركناه. فلما رأينا ذلك كذلك خلطنا عملا صالحا وآخر سيئا عسى أن يرحمنا الله.

وسمع العالم الشافعي في جامع عمرو يهتز تحنانا إلى أبناء علي في الحجاز فينشد:

يـا راكبـا قـف بالمحصـب مـن منـى واهتـف بقاعـد خيفهـا والنـاهض

....

إن كـان رفضـا حـب آل محمـد فليشـهد الـثقلان أنـي رافضـي

ريحانة النبي في كربلاء:

انتهى عصر معاوية بعد خلافة طالت تسعة عشر عاما وثلاثة أشهر وخمسة أيام[١٦] ليبدأ عصر يزيد (٦١- ٦٤) فكان أفسد حكم. وقع فيه أفظع ظلم. وأعمق جرح في قلوب أهل الإسلام. أنهاه الله بإنهاء عمره وانقطاع عقبه وعقب أبيه من سجل الدولة التي سعيا لها كل ذلك المسعى!

فسيخلفه ابنه معاوية بن يزيد. فيعلن أنه وأهله لا يستحقون الخلافة. ويعتزل بعد نحو أشهر ثلاثة. فكان اعتزاله من تلقاء نفسه وعباراته. وهو يعتزل، شهادتين بالفعل وبالقول، من نفس بني أمية. بأنهم جائرون.

أنهى يزيد سنوات حكمه بتجريد جيش على المدينة يسفك دمها، وينتهك حرمها، في وقعة الحرة سنة ٦٣، ليقتل فيها ثمانين من صحابة الرسول. فلم يبق بعدهم على ظهر الأرض بدري واحد! وقتل من قريش والأنصار ثمانمائة! ومن الموالي والتابعين وسائر الناس عشرة آلاف، ثم

---

(١٦) بنو أمية: معاوية: ٤١- ٦٠ "يزيد" ٦٠- ٦٤ "معاوية بن يزيد" ثلاثة أشهر في سنة ٦٤.

بنو مروان:	مدة الخلافة
مروان بن الحكم	٦٤- ٦٥
عبد الملك بن مروان مدة الخلافة:	٦٤- ٨٦
الوليد بن عبد الملك مدة الخلافة:	٨٦- ٩٦
سليمان بن عبد الملك مدة الخلافة:	٩٦- ٩٩
عمر بن عبد العزيز بن مروان مدة الخلافة:	٩٩- ١٠١
يزيد بن عبد الملك مدة الخلافة:	١٠١- ١٠٥
هشام بن عبد الملك مدة الخلافة:	١٠٥- ١٢٥
الوليد بن يزيد بن عبد الملك مدة الخلافة:	١٢٥- ١٢٦
يزيد بن الوليد بن عبد الملك مدة الخلافة:	١٢٦
إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك مدة الخلافة:	١٢٦
مروان بن محمد بن مروان مدة الخلافة:	١٢٧- ١٣٢هـ أو ٧٥٠م

لفظ آخر أنفاسه وجيشه يحاصر الكعبة بعد أن أحرقها! وأي نهاية لبشر أفظع من هذه النهاية! بل أي نهاية لدولة أبلغ في الدلالة على غضب السماء عليها!

فما كان حرق الكعبة ولا قتل الصحابة وتذبيح الآلاف إلا تتابعا للأحداث التي بدأ بها السنوات الثلاثة. وختاما طبيعيا للبداية المفظعة لحكمه. وجزاء له ولدولته. ينزله بها وبنفسه.

لقد استفتح حكمه بجريمة كربلاء في يوم عاشوراء! في العاشر من المحرم سنة ٦١. فوقع فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، مثله أو قريبا منه، من استشهاد أبي الشهداء: الحسين بن علي الذي دعا له النبي: "اللهم إني أحبه.. فأحب من يحبه"، والذي عظمه الخلفاء الراشدون والناس جميعا على مدار العصور. وهو القدوة في عطائه وعبادته وتواضعه وشجاعته في كل موقف: في "الجمل" و"صفين" و"النهروان" إلى جوار أمير المؤمنين علي وفي غزو أفريقية.وخراسان. وجرجان. والقسطنطينية. متصدرا جيوش المسلمين في عهد معاوية.

كان بقية الرسول ﷺ. وكانت آمال الأمة فيه آمالها في بقية الرسول.

وكان أبعد الناس عن أن يستخلف على المسلمين يزيد: يزيد الصقور، يزيد الخمور كما لقبه معاصروه. فلم يكن أحد ليأمل شيئا من عهد يزيد، إلا دنيا يصيبها أو أموالا يجمعها. ولذلك رفض الحسين أن يبايعه.

ودعا أهل الكوفة الحسين إليهم فبعث قبله مسلما ابن عمه عقيل. وخرج في أثره. فقتل عبيد الله بن زياد والي الكوفة مسلما. وتخاذل أهل الكوفة عن نصرة الحسين. فمضى حتى بلغ "كربلاء" على مبعدة خمسة وعشرين ميلا من الكوفة وفي ركبه ثمانية عشر رجلا من أهل بيته وستون من شيعته.

هنالك لقيهم جيش عبيد الله بن زياد، على رأسه عمر بن سعد والي عبيد الله على الري، فأعلن لهم الحسين أنه لا يريد الحرب، وخيرهم بين ثلاث: "أن تتركوني ألحق بيزيد. أو أن أعود من حيث جئت. أو أمضي إلى بعض ثغور المسلمين فأقيم فيها" ورفض ابن زياد إلا أن ينزل الحسين على حكمه، أي أن يستسلم ليصير أسيرا لابن زياد ويزيد! ليصنعا فيه ما صنعاه بأهل المدينة، بعد عامين، من استرقاق الرجال والنساء.

وحاول ابن بنت رسول الله أن يسير بأهله في أرض الله الواسعة، فسدت الجيوش أمامه كل مخرج! وانقضت عليه سهام الآلاف وسيوفهم، وهو يحارب كالأسد. وتسيل جراحات جسمه وهو في السابعة والخمسين حتى استشهد[١٧] واستشهد رجال أهل البيت جميعا. والرجال الستون

---

(١٧) كان المحرض على قتل الحسين وأهل البيت شمر بن ذي الجوشن رقيب ابن زياد على قائد الجيش. أما قاتل الحسين فالتاث عقله، وحمل الرأس الكريم إلى فسطاط القائد فصاح في وجهه – وهو مراقب من شمر بن ذي الجوشن – أشهد أنك مجنون. وحذفه بقضيب. فلقد كان المجنون يصيح والرأس في يده:

أوقـــر ركـــابي فضـــة وذهبـــا فقـــد قتلـــت الســـيد المحجبـــا

قتلـــت خيـــر النـــاس أمـــا وأبـــا وخيـــــرهم إذ ينســـــبون نســـــبا

الذين يتألف منهم ركبه، إلا غلاما مريضا عاجزا أن يتحرك هو ابنه زين العابدين" علي بن الحسين"! وساق المجرمون الحريم. وجهز عبيد الله بن زياد. زينب بن ت علي[١٨] وهذا الابن الوحيد الباقي من ذرية النبي، ومن معهما من الحريم مع الرأس التي طالما مسح عليها، وقبل فاها، رسول الله ﷺ إلى يزيد بن معاوية في دمشق.

وأعاد يزيد الوفد إلى المدينة.

* * *

إن في إنسانة البشر قابلية للفساد كهيئة قابلية المواد للهبوط إلى الأرض بقانون الجاذبية. والإسلام لذلك يرفع الناس إلى أعلى، إذ يدفع الأنفس إلى ما هو أقوم، بالعبادة اليومية على مدار الليل والنهار، وتطهير النفس على مدار العمر.

---

(١٨) اشتركت السيدة زينب أخت الحسين من أبيه وأمه معه في المعركة. وكان أثرها في مصير أهل البيت عظيما.

كانت زوجا لابن عمها عبد الله بن جعفر وكان قد أذن لها في الخروج مع الحسين فكانت تمرض المصابين في الصفوف أثناء القتال. ولقد هم شمر بن ذي الجوشن بقتل زين العابدين، فاحتضنته لتقتل معه، فانصرف المجرم مذموما مدحورا. ولما انتهت المعركة اقتيدت بين الأسرى إلى ابن زياد في الكوفة وإلى يزيد في دمشق ومعها زين العابدين تكلؤه بعناية الله على يديها لينجب، فيتسلسل منه أئمة أهل البيت الاثنا عشر، بل كل نسل الحسين من الرجال. وكانت مثال الشجاعة والبلاغة العلويتين في وجه ابن زياد ويزيد.

ولما أعيد الأسرى إلى المدينة أمر يزيد بإبعادها إلى مصر فسارت إليها، فاستقبلها أهل مصر في بلدة بلبيس على مبعدة عشرات الأميال من الفسطاط، وعلى رأس مستقبليها أمير مصر "مسلمة بن مخلد" فعاشت في مصر عاما، ثم ماتت سنة ٦٢. وقبرها في الحي المعروف باسمها وهو من أقدم أحياء القاهرة. وعلى مقربة منها حي السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن. جاءت إلى مصر مع زوجها في المائة الثانية للهجرة، ولقيها الإمام الشافعي، ولما مات حملت جنازته إليها فصلت عليه وقالت: "رحم الله الشافعي. إنه كان يحسن الوضوء" ويحمل اسم السيدة نفيسة حي معروف بالقاهرة، كما يحمل اسم "الحسين" المسجد الأشهر بالقاهرة والحي الذي يمجد عاصمة مصر وتتعالى فيه معاهد الجامع الأزهر وغير، من آثار الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية ودولتي المماليك.

ومن الفساد ما يستغلظ فيحوج إصلاحه إلى آية من السماء مثل كسوف الشمس وخسوف القمر. وفي استشهاد أبي الشهداء آية من الآيات.

كانت كربلاء قارعة رجت الأرض رجا يعيد الإسلام غضا في الأنفس، بما كان فيها من التصميم والإجماع على الاستشهاد في سبيله.

لقد انقضى بين يوم وفاة النبي وبين كربلاء خمسون عاما، كانت ضرورية لتدهور إحساس بعض الرجال في أجيال، تدهورا كافيا ليقتلوا ابن نبيهم! وهم يصلون عليه! وعلى آله الذين يقتلونهم!

وحسب هؤلاء المجرمين حكما عليهم أن يقول لهم كبيرهم "يزيد بن معاوية" وعيناه تدمعان: "قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين".

وإنما أطلق الروع دموعه، وأنطق الفزع لسانه، بقالة رياء فلقد كرر جنده يوم "الحرة" ما فعلوه، منذ عامين، في كربلاء. كما صنعوه مرة ثالثة إذ قذفوا الكعبة بالمنجنيق من أعلى جبل أبي قبيس. فالجريمة الأولى تدفع إلى الثانية، فالثالثة وغيرها. والجرائم يصنعها المجرمون، وتصنع المجرمين.

ويبقى هذا الرياء من يزيد، صيحة استهزاء بقوم باعوا أنفسهم للشياطين. لقاء متاع قليل، لا يلبث أن يزول. ربما لا يرضى عنه من ارتكب لأجله، لكنه مأخوذ به، ولو لم يرض عنه. فالقائد الظالم مسئول عما يقع من جنده. فما يظلمون إلا بظلمه، إن لم يظلموا بأمر صريح منه.

قالوا: كان الحسين يستطيع بالمداورة أو المناورة أن يكسب الزمن، أو يستطيع بالاستسلام أن يكسب الحياة، لكنه الذي قال فيه وفي أمه وأبيه وجده، إقبال[١٩]:

---

(١٩) الشاعر محمد إقبال. شاعر الهند وباكستان.

هي بنت من! هي زوج من! هي أم من! مـــن ذا يـــداني فـــي الفخـــار أباهـــا!

ومن قبله رفض أبوه رأي المغيرة بن شعبة أن يكسب الزمن بترك معاوية على الشام حتى يبايع. فلم يقبل علي أن يناور أو يكسب الزمن.

وناور المغيرة فصار عاملا لمعاوية!

الحق أن الحسين قدم للمسلمين الذين تعاقبوا في آثاره على مدار الزمان، حجة بالغة من أهل بيت الرسول. إذ ينفردون في التاريخ بهذه الخصيصة التي لم يماثلهم، أو يقاربهم فيها أهل بيت آخر في تاريخ الإنسانية: الاستشهاد في سبيل هداية البشر لما هو أقوم. وهي بعض خصائص الرسل.

منح الاستشهاد اسما لكربلاء. وخلد الأسماء التي تساقط أصحابها كالكواكب المنتثرة من السماء فوق الصحراء، لا لتتكدر، ولكن لتقدم للبشر درس الدفاع عن الحق. من فئة قليلة، واثقة في الحق سبحانه، لا تهمها أرواحها، وإنما يهمها العمل الصالح في ذاته. ولا تنظر إلى الساعة التي هي فيها، وإنما تمد أبصارها إلى مستقبل الإنسانية كله، لترتفع بالدنيا إلى مستوى أفكار الأئمة.

ولقد صدق الحسين المسلمين في كل موقف وقفه. وكان عند وصية أبيه له ولأخيه الحسن وهو يجود بأنفاسه الأخيرة: "أوصيكما بتقوى الله. ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما" فلم يبتغ الدنيا واشترى بها الآخرة.. فأمسى يقول: "إني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برما".

وشملت السماء ابن النبي في كربلاء بمزيد من التأييد. بمعان جليلة من جلال الإسلام، تختار منها هنا واقعة منه وواقعة من عدوه: في الأولى أخذ إخذ أبيه فسقى جيش العدو من العين التي نزل عندها ولم يحرم الماء قاتليه[٢٠]. وفي الأخرى ترك قائدان من القواد جيش ابن زياد، في وطيس المعركة، إلى الجماعة العزلاء حول الحسين، ليستشهدوا في الدفاع عن سيد الشهداء. بين رجاله الذين ماتوا عن آخرهم، وهم عليمون أنهم يخوضون معركة خاسرة بكل المقاييس التي يتقايس بها المتحاربون، مظفرة بمقاييس المؤمنين.

ولو عاش هؤلاء الشهداء العظماء، سوات أو أشهرا أخرى، لماتوا كما يموت الآخرون. لكنهم ماتوا شهداء "كربلاء"، ليحيوا في ضمير الزمان كله أمثالا للحق، وعناوين على عظمة الإسلام.

* * *

كانت كربلاء رسالة من ابن النبي للمسلمين: هي الأولى من نوعها بما تحتويه من دروس، لا تحصى، فحسبنا أن نشير إلى البعض منها. وفي الدرس الواحد جماع دروس:

وأول الدروس: يتعلق بالحق ذاته. وفي الحق أعظم الدروس: ألا يقر أحد الباطل. وأن يقدم في سبيل ذلك نفسه، وأن يكون قدوة.

---

(٢٠) وتعلم عليهما صلاح الدين في حروبه مع الصليبيين يوم أرسل طبيبه إلى الملك رتشارد قلب الأسد قائد الصليبيين.

وأين من قواعد الحرب الإسلامية قواعدها عند الأوربيين. إن أبقراط أبا الطب اليوناني الذي ورثت أوربة قسمه الأشهر يقسمه كل طبيب قبل أبداء واجبه بالنزاهة والأمانة وعدم التعصب – لكن أبقراط علم الأوربيين درسا آخر حين رفض أن يعالج مرضى الطاعون في الجيش الفارسي قائلا: إن شرفه يمنعه من معالجة عدو لبلاده!

وألا يهاب المكثورون كثرة الظلمة. فالأمم تبقى بالمقاومة ولا تصيبها الهزيمة إن فقدت معركة، ما دامت فيها إرادة النصر، يسعى إيمانها بين يديها لتبلغ غرضها كله، إن لم يكن من فورها، فمرحلة بعد مرحلة.

وأول من تعلم على الحسين بن علي درس سنة ٦١ كان عبد الله بن الزبير باستشهاده بمكة بعد أعوام عشرة، وهو مكثور بجند عبد الملك بن مروان بعد إذ حرقوا الكعبة، كما حرقها جند يزيد بن معاوية.

وتعلم عمر بن عبد العزيز وعلما لمسلمين – في مدة خلافته – أن الكلام أو الصياح، ليس الأداة المثلى للإصلاح، وإنما المواقف هي التي تهز وجدان الشعوب، فكان له أعم المواقف إذ بدأ بنفسه وأهله فضحى فكانت فيه الأسوة الحسنة. وكلل الله سعيه في أقصر مدة: ثلاثين شهرا كانت كافية لإصلاح دولة أدماها نحو قرن من الفساد، ولإسعاد أمة تنتظر القدوة من حكامها فلا تجدها.

والدرس الثاني: يتعلق بجزاء السماء وبمصاير الطغاة وطرائفهم: إنهم يحسبون الدنيا تدوم ولا تدور، ولا يدركون أن "الدهر بالإنسان دواري". كما يقول الشاعر العربي، وتركبهم شياطين الشهوة فيخالون أنهم يمسكون كرة الأرض في قبضتهم. يصطنعون أسباب الوثوب على أعدائهم من حين لآخر، ويتحينون الفرص المواتية، ويختلقون الأعذار الزيوف، ليقطعوا دابر العدو.. وكلما جد جيل جدت لهم الأعذار ولم تغنهم النذر.. فالذي حاوله فريق معاوية مع علي في صفين ولم يظفر به – من إفناء شيعة علي أو من الإطاحة بأخصائه بالسم من الوجود – قد أتاحته ليزيد فرصة في كربلاء.

وللطغيان طبيعة ومنهج. ومن طبيعته أن يعمي ويصم. فلا ينظر ولا يسمع إلا ذاته وأصواته. وأما المنهج فهو الغيلة. مرة واحدة إن أمكنه، وإلا فوثبة وثبة. ولكل واحدة ما بعدها.

والذي قارفه يزيد ليس مجرد سقطة وإنما كانت أم السقطات. فمن بعد كربلاء كانت وقعة الحرة، ثم كان حريق الكعبة.. في سنوات ثلاثة متعاقبة. فحق عليها جزاء السماء فأوردته حتفه.. والسماء تملي للظالم، حتى إذا أخذته لم تفلته.

والدرس الثالث: يتعلق بأهل البيت أنفسهم.

١- فهم العترة الطاهرة. يدخلون الجنة مع جدهم، بعملهم،فلا يعملون إلا العمل الأصلح. والذي صنعوه في كربلاء هو الذي كان يصنعه جداهم. والذي صنعه أصحابهم معهم هو الذي كان يصنعه الصحابة – وأعظم به وبهم صنيعا وصناعا. فما هو إلا صفحات جديدة يضيفونها إلى السيرة العطرة.

٢- وهم مثل جميع المسلمين، إن لم يكن قبل جميع المسلمين، مطالبون بالجهاد والتضحية وليس فضلهم ليسقط التكليف عنهم. كما يزعم بعض المتصوفة عن رجال من المتصوفين.

وهذا درس للمتواكلين الذين لا يقبل الإسلام تواكلهم.

٣- وهم يبلغون الذروة فيما يعملون: إذا حاربوا ماتوا شهداء، ولم يعطوا الدنية أو يستسلموا. لأن للمسلمين فيهم، كما كان لهم في جدهم. الأسوة الحسنة. وفي بيتهم سمقت المبادئ الكبرى. فمنم يطلب البلاء الممتاز. ومن هذا كان صغارهم، كالكبار منهم، أبطالا يستشهدون ولا يتراجعون.

لقد أذن الحسين لصحبه في أن يعودوا تحت جنح الليل ويدعوه وحده يواجه مصيره، فلم يقبل ذلك واحد منهم. ولم يرجف المرجفون من خصومهم، حتى اليوم، بأن واحدا منهم قد تردد. بل قال له ابنه زين العابدين، وهو مريض طريح على الثرى لا يقدر على الحركة: "ألسنا على الحق"؟ قال: "بلى والله الذي يرجع إليه العباد" قال الفتى: "فإذن لا نبالي".

والدرس الرابع: يدور حول وحدة العمل الصالح. وفيه يجتمع الحق والحقيقة في المبدأ والمنتهى وما بينهما. فإذا كانت الحقيقة أن أبناء الرسول رجال سلم وعلم وقيادة،فهم لا يدارءون وراء هذه الحقيقة، فيقعدون عن الجهاد – جنودا – للحق، أو يكتفون دونه بالعلم إذا دعا الداعي إلى الجهاد، أو يوصون بالسلم حيث الحرب واجبة لإعلاء كلمة الله، بل يستمسكون بالحق ويضعون الحقيقة كلها في خدمته.

والحق والحقيقة والعمل الصالح كل لا ينقسم. والأهداف العظيمة لا يبلغها الناس إلا بأعمال عظيمة ووسائل سليمة.

والدرس الخامس: درس في الواجب وأدائه في كل الظروف. وإن وهم المطالب به أنه غير مجد عليه أو على غيره – فهو لم يصبح واجبا إلا لأن التكليف به يحقق المصلحة العامة أو الخاصة، إن حالة وإن مؤجلة، منظورة أو غير منظورة. وهو قد أصبح واجبا لأنه فضيلة. وإذا لم يكن مجديا في لحظة، أو لرجل، ففي القيام به خير للناس، وللدنيا، في الظرف ذاته أو في ظروف أخرى.

والظروف غير المواتية لا تجعل الفضائل غير مواتية. فالفضائل مواتية أبدا، مطلوبة دائما.

وإذا كانت القدرة شرط التكليف والرخص متروكا تقديرها للرجال، فبالمعاناة أو التضحية ينسلخ الأقوياء من مسلاخ الضعفة. ويخلع الناس على العظماء وصف العظمة.

وما المعاناة والتضحية إلا محاولات للثبات في وجه الخطر، أو لاقتحامه. فهي درجات فضل وأدوات تقدم في معترك الوجود الإنساني. تضيف إلى تياره المتدفق أسباب طهر ونقاء، وأساليب بقاء، منظورة للكثيرين، وإن عمى عنها آخرون.

والـدرس الســادس: يتعلـق بوظيفـة التـاريخ. فهـو يصـحح العـوج ويصـوب الانحـراف، بالاستقامة على الجادة، خضوعا للعدل، وهو قانون السماء.

إن الغـلام المريض الـذي بقـى فـي خيمـة أبيـه يـوم كربلاء "زيـن العابـدين" سـيحيا ثلاثـة وثلاثين عاما حتى عام ٩٤، لتتسلسل في عقبه ذرية ترفع أعلام الإسلام عالية في ضمائر البشر. في حين أن الطاغية الذي يرسل النار والدمار على البيت العتيق بالحجاز وعلى أهل البيت، في صحراء العراق، سيزول ملكه – هو – وينقطع دابره – هو – بعد ثلاث سنين بتنازل من ابنه عن ذلك الملك. لينقطع اسم معاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن معاوية، من سجل الحوادث. وتخلد آثار أهل البيت ما تعاقب الجديدان، آية من السماء على أن دولة القتلة لم تعش. وأن دولة القتلى ستعيش أبدا. وأن دولة الظلم لا تبقى بمقاييس الزمن إلا ساعة أو هنية – أما دولة العدل فتبقى إلى قيام الساعة. وأنه تعالى صادق الوعد (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين).

وما أكثر ما كانت الغلبة ببقاء أسباب الانتصار، يتحقق بها النصر في مكان آخر أو زمان آخر، بقوم يحبهم الله فينصرهم مهما كان عددهم، ويحبونه فيجودون بأرواحهم.

والـدرس السـابع: درس في مبلغ ما تنجح الاستقامة ويفلح الإخلاص: فإذا كان أقرب الخطوط إلى الهدف هو الخط المستقيم وإن كان ترسمه أشد رهقا، فإن استشهاده أبي الشهداء كان الأساس السليم لقيام الصرح العظيم الذي جمع بين عمله وبين اسمه فصيرهما مبدأ. يحدث أثره في عمارة الدنيا وإصلاح الجماعة، في شكل قيام دولة، أو غلبة مذهب، أو وجود قدوة، أو ازدهار أمل، في بعث منتظر.

بهذا دارت الأفكار الدينية والمذاهب الفقهية للشيعة، سواء الإمامي منها، أو الإسماعيلي، أو الزيدي. في آفاق الحسين العالية. وبلغت أوجها في الفقه العملي القدير على التطور وفق حاجات البشر، في العبادات والمعاملات والأخلاق والنهج العلمي.

واستمسك المسلمون عموما والشيعة خصوصا، بالحسين وآله وأبنائه، واقتدوا ببطولاتهم،ومقولاتهم، فاستخرجوا منها أصولا زخارة. وبنوا عليها فروعا في الدين والاقتصاد والسياسة والاجتماع، لتقيم نظما سياسية وعلمية وفكرية واقتصادية متكاملة، هي كالنهر العظيم يجري إلى جوار النهر الذي يسبح في تياره أهل السنة.

والنهران يتجاريان، كأنهما البحران يلتقيان، على أصول الإسلام. ويعملان – كل على شاكلته – في تدعيم مبادئه.

* * *

وفي استشهاد علي بطعنة خارجي ركبته الشياطين، وفي ظلم معاوية وقومه له، حيا وميتا،وفي استشهاد الحسين وبنيه، وبني أخيه، ومن كانوا معه من الشهداء الذين ذكرناه، والذين سنذكر البعض منهم، على أيدي الكثيرين ممن سنرى فظائعهم بعد، نمت وترعرعت عقيدة أهل الإسلام:

١– أن عليا قبل التضحية دائما، في جوار النبي، وبعده، هو وبنوه. وأنهم ضربوا الأمثال من أنفسهم، لا بمجرد النصيحة أو الفصاحة، أو السياسة. ولكن بالدم الذي يتكلم، فتكون له بلاغة الشهادة بين يدي الله سبحانه. فأصبحوا عنوانا على العدل المفتقد، والأمل المنتظر، وبابا للرجاء في عدل السماء، لتتدارك المسلمين برحمتها ومغفرتها.

٢– أن المسلمين يضيفون إلى حساب الحسين، من حساب بني أمية وعمالهم وسفاحيهم، إذ أرادوا السلطة والمال وشقاء صدور قوم مبطلين. فقطعوا صلتهم بالله يوم قطعوا رأس ابن بنت رسول الله. وفي حين يتراءى قتلة أمير المؤمنين علي "خوارج" كما تضافرت الأمة على وصفهم، أو "بغاة" كما ساهم أمير المؤمنين نفسه، إذ لم يخرجوا عليه إلا لفهم مخالف من أجل الدين. يتدلى قتلة الحسين إلى أدنى درك في جهنم، سفاحين أجراء. وتتعالى بطولات لاحسين قدر ما تتعمق الحسرة من أجل استشهاده. فتبرز في إجماع المسلمين عليه بطلا، وفي الفكر الشيعي، حيث يضاف جهاده إلى الوصية له بالإمامة.

فهذا يوم للحسين وحده، ناله بحقه، وفيه سند لإمامة الأئمة من أبنائه: علي زين العابدين. فمحمد الباقر. فجعفر الصادق. فالباقين من الأئمة.

* * *

ظلت شجرة العدل، والعلم، والأمل، تسقى بدماء الشهداء كلما رأت السماء مصلحة للأمة. فلم تلبث الكوفة بعد نحو عام واحد من وقعة الحرة أو ثلاثة أعوام من يوم كربلاء أن هز ضميرها تقصيرها.

فقامت من الفور حركة التوابين سنة ٦٤[٢١] بين أهل الكوفة الندامى على ما فرط منهم من تقصير. فقتلوا قتلة الحسين وقواد جيش عبيد الله بن زياد، ولم تنته الندامة بقتل المختار بن عبيد زعيم التوابين سنة ٦٧، بل توالت الحروب على دولة بني مروان، بقيام دولة عبد الله بن الزبير، وخروج الخوارج، وقيام الفتن، ومنها فتنة ابن الأشعث وقد انضم إليها العلماء. وخروج زيد بن علي زين العابدين، وخذلان أهل الكوفة له سنة ١٢١ كما خذلوا جده سنة ٦١. فاستشهد زيد ومثل برأسه[٢٢] الخليفة هشام بن عبد الملك، ثم استشهد ابنه يحيى سنة ١٢٥.

وكان جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين شجرة باسقة تترعرع في كل ورقة من أوراقها خصيصة من خصائص أهل البيت في عصر جديد للعلم. تعاونت فيه أجيال ثلاثة متتابعة منه ومن أبيه وجده.

---

(٢١) تزعمها المختار بن عبيد الله الثقفي قائد عمر لفتح العراق. وكان المختار بن عبيد الله ممن قدموا مع مسلم بن عقيل رسول الحسين إلى الكوفة فحبس ثم شفع له صهر، عبد الله بن عمر فقبل ابن زياد الشفاعة فيه إذ لم يخف خطر. ولما خرج المختار أعلن أنه يحارب باسم محمد بن الحنفية "أخي الحسين لأبيه" ثأرا لدم الحسين. وانتصر المختار على جيوش بني أمية. ثم قتله مصعب بن الزبير سنة ٦٧. وأعلنت عليه حرب الدعايات فاتهموه بادعاء النبوة وأن من أتباعه من ينتظرون رجعته.

(٢٢) لم تمض أعوام حتى دالت دولة بني مروان، ونبش العباسيون قبور معاوية وابنه يزيد وعبد الملك بن مروان فلم يجدوا فيها ما يصنعون فيه مثلة. أما قبر هشام فوجدوا فيه جثة هشام لم تبل بعد، فصنعوا فيها أكثر مما صنع برأس زيد. إذ أمر السفاح بضربها بالسياط وصلبها وحرقها وتذريتها في الهواء.

ولما استمسك بإمامته وقنع بمنصبه التعليمي، علا قدره في أعين طلاب السلطة، وأمنوا جانبه. واتخذوا من زهده فيها شهادة لهم ضد من ينازعونهم.

لكنه كان الغرض الذي تنجذب إليه الأنظار: فهو يمثل العقيدة الدينية التي يقاس بفضائلها عمل الحكام في الإسلام، وما يتبعه من رضى العامة عنهم، أو سخطها عليهم.

وهو – بوجه خاص – حجر الزاوية من صرح "أهل البيت" ترنو إليه أبصار الذين يدعون الخلافة بدعوى أنهم من "أهل البيت".

وهو مقيم في المدينة، العاصمة الأولى، والدائمة، للإسلام، يتحلق فيها المتفقهة، حول علماء الإسلام في مسجد الرسول، يحملون بأيديهم مصابيح السنة، أو يعلنون شرعية الحكومة أو عدمها، وحسن السيرة أو فسادها، وإقرار أهل العلم أو إنكارهم. وهي أمور أساسية، تحرص عليها الدولة العادلة، وتتجنب الاتهام بمخالفتها أي دولة.

وإذا كانت دمشق قد أدارت ظهرها لمدينة الرسول، أو كانت بغداد قد فتحت أبوابها على العالم، وأوصدتها دون أهل المدينة، فالمسلمون يأتون إلى مدينة الرسول كل عام، خفافا وعلى كل ضامر، إذ يحجون إلى البيت العتيق بمكة، ويزورون قبر الرسول ويشهدون آثاره في المدينة.

وإذا كان الخليفة المنصور يقول عن نفسه: "إنما أنا سلطان الله في الأرض" فهو يحس وطأة "سلطان الدين والعلم" في المدينة، حيث إمام المسلمين غير منازع "جعفر بن محمد" الذي يصفه الناس – وأبو جعفر المنصور في طليعتهم – "بالصادق".

ومن أوصافه كذلك: "الطاهر" و"الفاضل" و"الصابر".